هكذا قتلتُ شهرزاد

اعترافات امرأة عربيّة غاضبة

جمانة حداد

دار الساقي

« الشقاء العربي هو أيضاً وليد نظرة الآخرين . هذه النظرة تحول دون الفرار، وتذكّرك ، بما فيها من ريبة وعنجهية ، بوضعك الذي لا مهرب منه . لا يشعر بما في هذه النظرة من حكم قاطع ، إلا من يحمل جواز سفر صادراً عن إحدى الدول الموبوءة ، ولا يقدّر مدى الشلل الذي تسبّبه هذه النظرة إلا من يقارن القلق الذي يشعر به بيقين الآخرين ، يقينهم في ما يخصّك ويتناولك ».

سمير قصير - تأملات في شقاء العرب

مقدّمة الطبعة العربية

الثورة التي نحتاج الثورة التي نستحق

أنا امرأة عربية تمشي على طريق .

الماضي القريب ورائي. هو ليس مشرّفاً، أعرف. لكن حسناً. فلأدعه وشأنه. شبعتُ (شبعنا؟)، من البكاء على الأطلال، القديم منها والحديث.

المستقبل، طبعاً، أمامي. هكذا تنصّ، في الأقل، قواعد الفيزياء الزمنية ونظريات أينشتاين. هو أمامي، لكني لا أراه. أحاول جاهدة؛ أقف على رؤوس أصابع قدميّ؛ أستخدم المنظار المجهريّ لأدعم قدرات العينين، لكن بلا جدوى. لا أراه.

بيني وبينه جدارٌ شاهق. هذا الجدار المرعب هو حاضري، وهو ما يعنيني اليوم، والآن، ودائماً.

أما الجدار، إرثي «العظيم» هذا، الذي شيّده أسلافي، ويزيد معاصريَّ من علوّه يوماً بعد يوم، «إنجازاً» بعد إنجاز؛ هذا الإرث الكارثي الذي جاءني من حيث لم أطلب، مثلما تجيء المصائب كلّها، فحدِّثوا ولا حرج.

هيّا، فلنخض معاً في عالم الهندسة المعمارية وتقنياتها:

الأساسات في كل جدار هي الركيزة، كما أعلم وتعلمون. ركيزة جدارنا العربي قوية متينة لا تُهَزّ. بل أكاد أقول إنها مضادة للزلازل. ركيزة غير مرئية وغير ملموسة، لكنها على رغم ذلك غير قابلة للتشكيك والنقض. لماذا؟ لأنها ليست من إسمنت وتراب وحديد، بل من معتقدات ونبوءات وآيات

ووصايا مقدّسة. لِمَ اللف والدوران حول أصل العقدة؟ سأسمّيه، «بعبعنا» هذا: ركيزة جدارنا العربي الأولى هي الدين أيها السيدات والسادة، في طريقة استخدامه وتوظيفه، وكل ما يستتبعه (على اختلاف أنواعه ومشاربه) من آفات: «الإيمان الأعمى»، استحالة المساءلة بسبب خطر التكفير أو الرعب من خرافة جهنّم، انعدام الحس النقدي، الظلامية، التحجّر، العجز عن التطوّر، انسحاق الفردية وسط هيمنة الجماعات، الحروب على الآخر المختلف، اللاتسامح، الانقسامات المقيتة، التمييز الممارَس على المرأة/ الضلع، قمع هذه المرأة وحجب كيانها وكتم صوتها وشلّ قدراتها وتسليعها في بورصة الذَّكَر، الكبت الجنسي، البطريركية، التآمر مع السلطات السياسية ضد الشعوب، «تسخير» الشعوب في سبيل الهيمنة السياسية، غسل الأدمغة وتخديرها بأدوات الجهل والتخويف، طمأنة فزع الإنسان الطبيعي من الموت بجائزة ترضية يستحيل التأكد من تسلّمها («الداخل إليه مفقود»)، وهلمّ.

هل أتابع؟

ركيزة جدارنا العربي الثانية هي أنظمتنا المجتمعية البطريركية: أنظمة تسهم في الترويج لها من جهة، ذكوريةٌ استعراضية تافهة (ما هي إلا قناع لانعدام الثقة بالنفس)، ولا تساعد في التصدي لها من جهة ثانية، إيديولوجيا نسوية مأزومة وضيقة الرؤية. أنظمة مهينة تعتبر المرأة كائناً بشرياً من الدرجة الثانية؛ وُجد ليخدم، أو ليسلّي، أو ليمتّع، أو ليطيع. أنظمة قامعة غيورة على أخلاقياتنا وأدبياتنا ومفاهيم العفة والحشمة والطهارة. أنظمة تمييزية ترى في المساواة بين الرجل والمرأة هرطقة، أو مزحة ثقيلة الدم؛ وتخلط، عن قصد، بين مفهوم المساواة الإنساني، والتماثل أو التماهي التبسيطي السخيف: أي كاريكاتور المرأة التي تتشبّه بالرجل. وهذا فخّ بطريركي آخر لا يقع فيه الرجال فحسب، بل غالبية النسويات أيضاً، للأسف.

أما الركيزة الثالثة، فسياسة المكيالين في حضاراتنا ومجتمعاتنا وثقافاتنا، وأشكال التمييز المختلفة على النساء، الواضحة منها والمستترة: على مستوى التحصيل العلمي، الوظيفة، الأجور، المشاركة السياسية، الحرية الشخصية، الحياة الجنسية، إلى ما هناك من عناصر تحدّد كيان الإنسان اجتماعياً ومدنياً وجنسياً وثقافياً وسياسياً.

أما الركيزة الرابعة، فالعنف العبثي، المجرم، الممارَس بانتظام ومنهجية على المرأة: قضايا الضرب والترهيب والختان والعذرية والاغتصاب، فضلاً عن الجرائم التي تُرتكَب باسم الشرف العربي المهلهل (شرفنا هذا المرتبط حصراً بما بين فخذَي امرأة) وغضّ طرف غالبية السلطات عن هذه الجرائم، أو تساهلها حيالها.

أما الركيزة الخامسة، فتلمّظ المرأة العربية نفسها، وإن من دون تعميم، بصفة «الضحية» (الشكوى أسهل من المواجهة)، وعدم استفظاعها الإهانات الفادحة التي تتعرّض لها (أين كرامتها؟)، وعدم وعيها أنها تستطيع تغيير واقعها وإنْ بخطى صغيرة، أهمّها تربية الأجيال الجديدة على قيم ومعايير مختلفة تحترم الجنسين وتؤمن بالمساواة.

أما الركيزة السادسة، فأنظمتنا السياسية التي يدّعي بعضها صفة الجمهورية، ويتغنّى بعضها الآخر بالديموقراطية، بينما هي جميعها، من دون استثناء، تتبارى في ما بينها لإعلاء شأن الفساد والقمع والرداءة والخساسة والحطّة: سياسات قائمة في معظمها على الدسائس والفتن والإقطاعية والتخوين والصفقات والاتفاقات تحت الطاولة والاستزلام والالتحاق بآخرين و...

أما الركيزة السابعة، فثقافاتنا النائمة في ركود مستنقعي، يهدهدها ويطربها صوتُ شخيرها. وإذا استفاقت، فلا لشيء سوى لوضع العصيّ بين الدواليب. أو لنشر الشائعات والهلوسات والافتراءات. أو لتعزيز دساتير الجهل والفصام والسكيزوفرينيا والتخلّف والخبث والتكاذب وفنون الاختباء وراء الإصبع الوسطى.

أما الركيزة الثامنة، ففلسفاتنا الاقتصادية القائمة على تفقير الفقراء وإثراء الأثرياء، مع كل ما يفترضه ذلك من ظلم وجور وعمليات نهب وتزوير وبرطلة وصمّ الآذان عن معاناة الطبقات المحرومة. أطفال يموتون جوعاً وآخرون يبيعون العلكة على الطريق، بينما ثمة من يروي عطشه بالشمبانيا. ثم يجيء من يحدّثك عن الفجور!

أتريدون بعد؟ سجِّلوا. حَجَرُ الظلم، حجر اكتفائنا بإلقاء اللوم على الآخر بدلاً من تحمّلنا مسؤولياتنا، حجر الفوضى، حجر الأمية، حجر الغدر، حجر إلغاء الآخر، حجر انعدام الحوار، حجر الخيانة، حجر العمالة، حجر بيع الضمائر، حجر الجبن، حجر الطعن في الظهر، حجر الحقد، حجر انعدام الصدقية، حجر الرقابة، حجر الانتهاز والماكيافيلية والسمسرة، حجر «الغاية تبرّر الوسيلة»، حجر الزحفطونية وتمسيح الجوخ، حجر الكذب على ذقون المواطنين، حجر الخبث والزعبرة، حجر البطالة، حجر الهدر، حجر التلوّث، الخ.

حجر فوق حجر فوق حجر. وأنا امرأة عربية تمشي على طريق. والجدار بيني وبيني. ولا منفذ في الأفق.

* * *

ثم يجيء، وسط هذا كلّه، من يحدّثني عن «كوة ضوء»!

حسناً. فلنتفحّص معاً هذا الجدار، وخصوصاً ركائزه الثلاث الأولى: الدين، بعد تحوّله إلى طوائف ومذاهب، الذي يحول دون اعتماد نظام علماني متحضّر وقابل للتطوّر؛ السلطة البطريركية التي تحول دون استتباب مساواة مستحقَّة؛ والمعايير المزدوجة التي تحول دون تمتّع المرأة بحرية جنسية، هي حقٌّ لا ترف. الدين. ثم السلطة. ثم الجنس. السلطة. ثم الجنس. ثم الدين. كيفما قلبناها، من أيّ جهة نظرناها، الثالوث هو هو، وحول الثالوث محرّماتٌ تنغل كأنها وكر دبابير. أما هالة الثالوث فالازدواجية طبعاً، أضيفوا إليها الخبث، والكذب، والتخلف، والجهل، والخوف من المجاهرة، وهلّم.

سآخذ الثور من قرنيه وأبدأ من البداية، أي من أصل العلّة: وأصل العلّة الدين، من بعد إذن إيمانكم، أيها القارئات والقرّاء الأعزاء.

اسمحوا لي أولاً بأن أنعش ذاكرتكم، وذاكرتكنّ خصوصاً، بما يأتي:

1- «لتتعلّم المرأة في كل خضوع. ولكن لست آذنُ للمرأة أن تعلِّم ولا أن تتسلط على الرجل بل أن تكون في سكوت. لأنّ آدم جُبِل أولاً ثم حواء. وآدم لم يُغوَ لكن المرأة أُغويت فحصلت في التعدي». المصدر: الإنجيل، العهد الجديد، رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، الإصحاح الثاني: 11 - 14.

2- «لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما يملكه». المصدر: التوراة، سفر الخروج، الإصحاح العشرون: 17.

3- «الرّجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ». المصدر: القرآن الكريم، سورة النساء: 34.

في ما سبق ثلاثة مقتطفات اقتبستُها من ثلاثة كتب ذائعة الصيت، حسبي أننا نعرفها كلنا تقريباً. هذه الكتب المقدسة في الأديان التوحيدية، تتنافس، كما رأينا للتو، في مجال إذلال المرأة وتصنيفها «مِلكاً» للرجل وتخضيعها.

قد يردّ عليَّ البعض: «إن هذه سوى مقتطفات. من غير الدقيق علمياً ومن غير النزيه فكرياً أن نعمّم انطلاقاً من تفصيل». سأجيب: أنتم على حقّ. لكن حتى القراءة المتأنية لهذه الكتب الثلاثة وتعاليمها، لن تُظهر، في أفضل الحالات، إلا نوعاً من التساهل أو التسامح «اللطيف» حيال المرأة، وهو لطف لا يلغي عجرفة ما سبق، لا بل ينمّ غالباً عن شعور مذلّ ومهين بالتفوّق لا يقلّ قسوة عن التمييز الواضح في المقتطفات أعلاه.

ثم قد يعترض بعض آخر: «هذه الكتب تعود إلى أزمان بعيدة، وتعكس ظروفاً اجتماعية مختلفة، حيث كان هذا النوع من الخطاب يجد تبريره إلى حدّ ما». سأقول: فليكن. سأسلّم، كمحامية جيدة للشيطان، بصحة هذا الادعاء، وأتجاوز «خطأ التصنيع» الأصلي. ولكن إذا كانت الحال هذه فعلاً، فلِمَ تستمر هذه الكتب حتى قرننا الحادي والعشرين في تشكيل مراجع مطلقة تُطبَّق على التصرفات والأفكار والمبادئ وأنماط حياة الكثير من الناس؟ لماذا لا تزال نصوصها لا تُمَسّ؟ أيّ جهد إصلاحي داخلي أدى فعلاً إلى تغيير صورة المرأة من وجهة النظر الدينية، وأسهم في أن يعيد إليها كرامتها وموقعها المساوي للرجل، لا في القول فحسب، ولكن أيضاً وخصوصاً في التطبيق؟

لأجل ذلك، غالباً ما أسأل نفسي: «أنا امرأة لبنانية، ولكن هل أنا مواطنة لبنانية؟». لا، ما دام ديني عند الولادة (أنا لم أختره ولم يخترني) هو الذي يتحكّم بوضعي وشؤوني وموقعي وحياتي، من الحياة إلى الممات. لا، ما دمتُ أرد في السجلات الرسمية ككاثوليكية، وما دمت تزوجت للمرة الأولى ككاثوليكية، وأنجبت أطفالاً صفتهم الأولى أنهم كاثوليك. هل أنا مواطنة لبنانية؟ لا، ما دامت الحياة السياسية في بلادي تُدار بحسب الانتماءات الطائفية لقادتها. لا، ما دمت اضطررتُ أن أسافر إلى قبرص كي أتزوج مرةً ثانية زواجاً مدنياً، وهو، كما نعلم، زواج تعترف به دولتنا ولكن لا تعمل به: أي إحدى علامات الخبث والفصام الكثيرة التي نعاني منها. لا، لسنا مواطنين، ما دمنا نحن اللبنانيين نسمح لأنفسنا حتى أيامنا هذه بأن نسأل الآخر: «ما هو دينك؟». لا، ما دمنا نزرع التعصّب، ونثمّن القوة، ونمقت الآخر، ونمارس الذكورية والتمييز. لا، ما دامت الفظاعات التي تسمّى «جرائم شرف» لا تزال تمارَس على أرضنا وفي حقّ نسائنا. لا، ما دمنا جماعات لا دولة. الأمثلة التي يمكنني أن أذكرها في هذا السياق لا تنتهي.

عارٌ عليَّ أن أعيش في وطن يدّعي أنه جمهورية ديموقراطية، لكنه يفتقر إلى مجتمع مدني علماني متحرر من سطوة رجال الدين. إياكم والحديث عن «التوازنات الهشة» التي ينبغي مراعاتها في لبنان. هذا محض تبرير للإمعان في الابتذال والطائفية والإقطاعية والتعصّب والفحش والانقسام واللاأخلاقية. هذا محض استغباء للبشر. هذا محض إذعان لاحتكار الأديان لحياتنا وجعل نفوذها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ذا أهلية قانونية.

فلندخل في صلب الموضوع: هل نستطيع أن نكون مسيحيين أو مسلمين أو يهوداً، وأن ندافع من داخل دياناتنا عن المساواة بين الجنسين؟ الإجابة بـ «نعم» ما هي إلا أحد تعبيرات الإنكار الكثيرة

التي نعيشها. فلهذه الأديان الثلاثة الموقف نفسه من النساء: متنازل في أحسن الحالات، مخضِّع وعدائي في الحالات الأخرى، على ما كتبت المؤرخة آن موريل: «هذه الأديان وُلدت في حوض المتوسط، وهو مكان جغرافي واجتماعي حيث المعايير الذكورية راسخة، وحيث النظام البطريركي يحكم على النساء بموقع دوني».

يتقصد الغربُ الإسلامَ غالباً في مسألة حقوق المرأة، غير أنه ينسى، وننسى معه، أن في اليهودية صلاة يشكر فيها الرجال الله لأنهم لم يولدوا نساءً، وأنه بحسب التلمود، أفضل ألف مرّة إحراق التوراة من تسليمها إلى امرأة. وينسى الغرب، وننسى معه، أنه في رسائل مار بولس، ممنوع على النساء التكلم في الأماكن العامة والمداخلة في الاجتماعات، وأنه بين الرسل الاثني عشر، لم يختر المسيح أيّ امرأة.

أتريدون المزيد؟ قرأتُ أخيراً أن خمسين كاهناً من كنيسة إنكلترا سوف يتركون كنيستهم الأنغليكانية ويلتحقون بالكاثوليكية، لأن الأولى أعلنت أنها ستقرّ قانوناً يسمح برسم النساء أساقفة. أثار الخبر طبعاً عاصفة من الجدالات والانتقادات في الكنيستين. لكن ما يهمّني في الأمر، دلالاته التمييزية الواضحة، إذ وصف الفاتيكان رسم النساء أساقفة بـ «الجريمة»، ووضعها في المرتبة نفسها مع جريمة «الاعتداء الجنسي على الأطفال».

يا للهول! كيف يمكن امرأة ذات كرامة أن تقرأ كلاماً من هذا النوع ولا يقشعرّ بدنها غضباً؟

على رغم ذلك، لا يزال البعض يزعم، في البلدان العربية والعالم، أن الاسلام وحده مجحف في حق النساء، أما الديانة الكاثوليكية فتتيح تحررهنّ وانعتاقهنّ. يا له من غبن خبيث. في هذه الأثناء، لا يزال البابا متمسّكاً بذكورة كنيسته البطريركية: حذار أن تقرب امرأة تلك المؤسسة، سوى في إطار الرهبنة، وحذار أن يكون لها نفوذ فيها. السلطة للأصل أيها السيدات والسادة، لا للضلع. وقبّعات الأساقفة المذهّبة ثقيلة على رؤوس النساء.

لا يزال البابا نفسه متشبثاً أيضاً بقوله إن استخدام الواقي الذكري «حرام». ولا بأس اذا مات جرّاء ذلك آلاف البشر في أفريقيا وسواها بمرض السيدا، كي لا نذكر سوى عاقبة واحدة من ألف. المهمّ أن نظل نوهم المؤمنين بأن الجنس للإنجاب فقط. الخطيئة الأصلية ركن، والشعور بالذنب صلاة يومية.

أيضاً في موضوع الدين لا بدّ من تناول نموذج منتشر ومزدهر ورائج، وبازدياد، في مجتمعاتنا وثقافاتنا العربية، ألا وهو نموذج المتديّن الكاذب، المصاب بفصام فتّاك، إلى أيّ دين انتمى: ينهى عن المنكر بيد، ويمارس الدعارة الفكرية باليد الثانية. يهجس بالجنس، لكنه لا يجرؤ أن يتحدث عنه. يخطب في العفّة والقيم، والعفّة والقيم بعيدة عنه كل البعد. يدين الحرية الجنسية، ويستمني يومياً أمام أفلام البورنو. يدعو إلى الصلاة والتكفير عن الذنوب، ولا يفهم الصلاة سوى تمتمة ببغائية لكلمات بلا معنى، ثم يروح ينفّس عن مكبوتاته وعقده حيث لا تراه عين ولا تسمعه أذن. ترى كم من هذه النماذج الفصامية في العالم العربي اليوم؟ سؤال بلاغي فحسب: لا تتكلّفوا عناء الإجابة.

حذار. أنا لست أدعو هنا إلى الإلحاد، حتى لو كان يقنعني شخصياً. سيكون ذلك شكلاً آخر من أشكال التقييد والتكييف المبرمج التي أرفضها. لكلٍّ منا اقتناعاته، ولكلٍّ منّا إيمانه. لكن بربّكم ليكن هذا الإيمان في الداخل، في الحشمة، في الصمت، ضمن أطر الحياة الخاصة والحميمة، بعيداً من قانون الأحوال الشخصية والحياة السياسية. فلطالما تحقّق تحرّر المرأة في إطار علماني، ومن المهم، بل من الحيوي أن نتذكر ذلك. ليست العلمانية بالتأكيد الضمان الوحيد للمساواة بين الجنسين. على سبيل المثال، يعود قانون فصل الدين عن الدولة إلى عام 1905 في فرنسا. غير أن الفرنسيات لم

ينلن حق الاقتراع إلا بعد مرور 40 عاماً على هذا القرار. ورواتب النساء لا تزال حتى أيامنا أقل بـ 25 في المئة من رواتب الرجال في فرنسا. ليست العلمانية كافية في ذاتها إذاً، لكنها شرط أولي وضروري على درب تحقيق المساواة. كيف نصل إليها في بلدان عربية معقّدة كبلداننا، حيث لا فصل بين الدين والدولة؟ لا أدّعي امتلاك الإجابة. كلامي هذا لا يهدف سوى إلى عرض الحال التعيسة للأمور. لكنه السؤال الأكبر الذي بات من مسؤوليتنا كلّنا أن نطرحه على أنفسنا، وأن نحاول إيجاد حلّ له في جهد فكري وتطبيقي جماعي.

عود على بدء، ولأكن أكثر وضوحاً ومباشرة و«تبسيطية»: ما دام من المحرّم على المرأة أن تكون رأس الكنيسة الكاثوليكية، فلن أعتبر نفسي عضوة في الكنيسة الكاثوليكية. ما دام الرجال المسلمون لا يرتدون البرقع بدورهم، فسأظل أفضح البرقع كأداة قمع وإلغاء مهينة لكينونة المرأة. مليون مرّة كافرة، ولا مرّة مُهانة في أنوثتي وكرامتي الانسانية. ولا يتجرأنّ أحدكم على القول إن أفكاري هذه هي نتيجة عدوى التقطتُها من لوثة «غربيّة». حقوق الإنسان عالمية أيها السيدات والسادة، وليست حكراً على الغرب. ارجعوا إلى نص الإعلان.

أما المناضلات النسويات اللواتي يتحدّثن عن مفاهيم «النسوية الإسلامية» أو «النسوية المسيحية»، فيشعرنني بالإحباط. متى نكفّ عن التسويات ومحاولات التغيير اللامجدية من داخل الثمرة الفاسدة؟ متى نعترف بأن لا تناغم ممكناً بين تعاليم الأديان وكرامة المرأة وحقوقها؟ تكفي قراءة الكتب الدينية ومتابعة تطبيقاتها للتأكد من ذلك.

ولا استثناء.

* * *

ثم يجيء من يحدّثني عن «كوة ضوء».

حسناً. فلأتحدث عن السلطة البطريركية ثانياً. ولا حديث عن السلطة البطريركية يستتبّ من دون الحديث عن الذهنية الذكورية، التي تعزّز تلك السلطة؛ وعن الذهنية النسوية، التي (يُفترض بها أن تكون) تكافحها.

غالباً ما يحصر الناس، والنساء تحديداً، النظام البطريركي بشخص الرجل. وهذا سوء فهم مريع، ناهيك بأنه ظالم. ثمة نساء بطريركيات، تماماً مثلما هنالك رجال نسويون.

لقد بلغ الأمر بالعلاقة المأزومة بين الرجل والمرأة، وبالقدر نفسه بين الرجل وذاته، والمرأة وذاتها، حداً بات فيه التمترس وراء الحصون الذاتية والموقف الهجومي والنظرة المسبقة إلى الآخر، ضرباً من الفصام والهذيان.

لم يعد مسموحاً بأن تتحكم بحياتنا أفكارٌ وممارسات من النوع النسوي والذكوري المتطرف، لما تنطوي عليه هذه من إهانات جوهرية وإعاقات، تنعكس بشكل مأسوي على العلاقات البشرية وحياة المجتمع كلاً.

النسوية الكلاسيكية أمام الجدار المسدود. الذكورية الكلاسيكية أمام الجدار المسدود. هاتان حقيقتان بديهيتان لا يمكن التغاضي عنهما والقفز عليهما لبناء أي شيء عقلاني في المجتمع.

عندما تتحصّن المرأة بالأفكار النسوية الراديكالية، فإنها تكون لا ضدّ الرجل فحسب، بل خصوصاً ضد ذاتها. الشيء نفسه يقال عن الرجل عندما يمعن في ذكوريته. هذان موقفان يذهبان، كلٌّ في طريق أفقي، ولا يمكن أن يلتقيا في مكان ما. فهما سيظلاّن يتقدمان أفقياً، آخذَين في طريقهما كل التجارب والأحلام والطاقات والديناميات التي يمكن أن تنجم عن اللقاء غير المحكوم بمسبقات بين الرجل والمرأة.

موقفان محكومان بالجنون. بالفصام. بانفلات المنطق. بالحقد. باليأس. بالمرارة. بالخيبة. وبالألم.

على رغم الاختلافات الأكيدة (الجميلة والضرورية) الكامنة بين الرجل والمرأة، فإن نقاط تلاقيهما تفوق بأشواط نقاط اختلافهما، لا بل إن الاختلافات بين الأفراد هي أكثر حدة من الاختلافات بين أبناء الجنسين.

ولأني امرأة، فأنا أشدد على الأخطار المتأتية من استمرار الشعارات والممارسات النسائية المرتبطة بالنسوية المتطرفة، وبهذا النوع من «الكفاح» الإيديولوجي، الحزبي، الميليشيوي، الشوفيني، العصبي، الضيّق. لأجل ذلك أقول إني أنتمي أكثر ما أنتمي إلى فلسفة «ما بعد نسوية».

هي فلسفة تقنعني لأنها تولي المركز الأول لتنوّع النساء في العالم، وفردياتهنّ، وتعمل على اجتناب فخاخ الحركة النسوية الأساسية (خصوصاً حركة الستينيات والسبعينيات)، ومنها الخطاب الراديكالي الضيّق والرافض للرجل، والثنائية التخاصمية والصدامية واللاتوافقية بين الجنسين، وتحويل المرأة ضحية عاجزة والرجل جلاّداً لا يرحم.

الدفاع عن قضايا المرأة، يجب ألاّ يكون شعاراً محض نسوي، أو محض ذكوري. هي مسألة إنسانية أولاً وخصوصاً. كذا يقال عن مناهضة الذكورية التي يجب ألاّ تكون قضية ترفعها النساء فحسب، أو الرجال فحسب. في هذا المعنى، لا تعني المساواة التشبّه بالرجل، بل نيل الحقوق نفسها: قانونياً، واجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً، وجنسياً، الخ. وهي تالياً مساواة تفيد الرجل وتدعمه، بقدر ما تفيد المرأة.

الهوة سحيقة بين النسوية والذكورية، ومن الصعب ردم العمق التراجيدي بينهما بدون أفكار حياتية خلاّقة، من مثل: الرجال والنساء معاً وفي آن واحد، ضدّ النسوية وضدّ الذكورية. هذا هو بعض ما تدعو إليه فلسفة «ما بعد النسوية».

موقف كهذا، يتطلب قلب الطاولة، «طاولة الرجل هنا والمرأة هناك»، على مَن حولها. أقلّ من ذلك، يُعتبَر نشاطاً مجتمعياً مداهِناً، ومجامِلاً، بل يُعتبَر استمراراً في اتباع منطق الخبث والتكاذب الذي يتحكم بجوهر العلاقة بين الرجل والمرأة.

لا بدّ والحال هذه من «شيء ما» - لا أسمّيه انقلاباً - «شيء ما» جذري، بنيوي، غير عنفي، وغير لفظي، وغير شعاراتي، وغير فئوي، يطاول لبّ العقل النسائي والرجالي على السواء.

تغيير ذهنية الرجل وسلوكه لا يتمّ من طريق القضاء عليه بل من طريق الصبر والانتظار والعمل الدؤوب والاحترام المتبادل: تحويل الرجل «شيطاناً» لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة، بل جلّ ما سيؤدي إليه هو توسيع الهوة بين المرأة والرجل وزيادة أعراض الفصل بينهما.

لأجل ذلك، نحن في حاجة، اليوم وهنا، إلى نوع آخر من النساء: أولئك المكافحات، اللواتي يقاتلن بأظفارهن للحصول على مبتغاهنّ من دون أن يحتجن إلى ابتزاز الرجل ولا إلى إلغائه.

فهل من الممكن، في العالم العربي، تجاوز ورطة النسوية «القديمة» والانتقال فوراً إلى مرحلة النسوية الجديدة، من دون أن يكون ذلك مرادفاً في الضرورة لحرق المراحل؟

أقول أن نعم. يكفي في سبيل ذلك أن نتعلّم من «كيس» سابقاتنا، وأن نجتنب الأخطاء التي وقعن فيها، والتي نحن في غنى عنها.

لنبدأ من النقطة الصفر: ضد النسوية وضدّ الذكورية على السواء، بمعنييهما المتطرفين، الرافضين للآخر، المنغلقين على نفسيهما. على أن يجتمع تحت سقف هذا الضدّ، الرجال والنساء، معاً وفي آن واحد.

في هذا السياق، يهمّني أن أذكر تظاهرة ضخمة شهدتها العاصمة الإيطالية روما يوم الأحد 13 شباط 2011، بدعوة من عدد كبير من المثقفات والكاتبات والمناضلات في سبيل حقوق المرأة، ضد برلوسكوني وفضائحه المبتذلة المتتالية. حملت التظاهرة عنوان «إن لم يكن الآن فمتى؟»، وقد شارك فيها مئات الألوف، وامتدت عدواها إلى مدن كثيرة أخرى، على غرار فلورنسا وميلانو وتورينو وبولونيا ونابولي.

ما لفتني خصوصاً وتحديداً في تلك التظاهرة، نزول الرجال إلى الساحة. أقول الرجال، وأعني حلفاء النساء الأهمّ في معركة مماثلة. إذ لطالما أزعجني غياب العنصر الذكوري عن المبادرات الهادفة إلى تحقيق عدالة تساوي بين الجنسين، ولطالما أزعجتني معايير «الفصل» بين حاجات النساء وحاجات الرجال، وسواها من العادات التمييزية التي تخرّج أناساً مجبولين بالعقد والكبت والجهل والخوف من الجنس الآخر، والحقد والكراهية حياله أيضاً، لا بل في الدرجة الأولى. كيف لا، واقتناعي، واقتناع كثيرات أخريات، بأن الرجل شريك حتمي وأساسي في مكافحة الظلم اللاحق بالمرأة في ظل جميع الأنظمة السياسية والأمنية والدينية الرجعية الأخطبوطية التي، على غرار تنّين الأسطورة، لا تني تفرّخ لها رؤوس جديدة كلما قُطع منها رأس!

كيف لا، وقد بات من الضروري، بل من الحيوي، أن يعيد الرجل النظر في هويته الذكورية، وأن يدرك أن هذه الهوية ليست مقترنة بتغييب شخص المرأة وحقوقها ومشاعرها، ولا هي مقترنة بعلامات البطريركية والتملك والتسلط والادعاء والنظرة الدونية حيال «النصف الآخر من السماء»، على ما وصفها ماو تسي تونغ؟

في كل حال، مَن نحن لننتقد «الطليان»؟ نحن اللبنانيين الذي الذين ما زلنا نربط مفهوم الشرف بعود الكبريت الموجود بين فخذَي امرأة (على رغم ادعائنا العكس)؛ نحن الغرقى في قرف الذكورية واللاإكتراث والتهويل والمزايدات والانقسامات؛ نحن جماعات «من بعد حماري ما ينبت حشيش»، و«إننا على حق وهم على خطأ»...

أتريدون المزيد؟ في بلدنا العزيز لبنان، بلد «التحرّر» هذا، لا ترعوي وزارة السياحة عن إنتاج فيلم قصير لدعم السياحة في لبنان، يرتكز على نوستالجيا السائحين الكرام إلى أجساد النساء اللبنانيات! ولا تعليق ضرورياً.

صدقاً، لا أعرف كيف يمكن امرأة أن تكون عربية اليوم، من دون أن تستشيط غضباً في كل لحظة حيال الإهانات الهائلة التي تلحق بها، أكانت هذه الإهانات تهدف إلى إلغائها تحت سجن أسود، أم إلى استغلال جسدها وتشييئه.

في الشرق أجيال وأجيال من النساء تحت نير التغييب والتكميم والإلغاء والظلامية والقمع والجهل القسري. وفي الغرب أجيال وأجيال من النساء تحت نير التسليع والتسطيح والتعهير، وتحويلهنّ محض أجساد معروضة للبيع.

هنا البرقع وإخوته وأخواته، وهناك لحمٌ على هوى المزاد (وإن لست أعمّم).

أما كرامة الأنوثة والذكورة، وقوتهما، حتماً، ففي مكان آخر.

* * *

ثم يجيء من يحدّثني عن «كوة ضوء».

حسناً. فلأتحدّث عن المعايير المزدوجة ثالثاً. أو عن بعضها في الأقل. فاللائحة أطول من أن ترد هنا بكل بنودها.

في مجتمعاتنا يقول الشاب لشقيقته، أو الأب لابنته، على سبيل المثال لا الحصر: «صوني جسدك ولا تفرّطي بكرامتك وعذريتك وشرفك وعزّة نفسك. سمعة العائلة من سمعتك». لكنه، من وراء ظهر شقيقته أو ابنته، بل على مرأى منها، ومسمع، لا يترك النساء الأخريات من شرّه، ولا يتوانى عن التأكيد أنه عصري و«منفتح» لكي يقنع المتردّدات بالوقوع في حبائل «حبّه»، وغالباً ما يكرّر على مسامعهنّ أن غشاء البكارة «مزحة لا تصلح سوى لمعقّدي هذا الزمن».

كيف لا، والرجل يعرف أنه «مدعومٌ» بمعادلة المكيالين في شرقنا العزيز، شرق «جرائم الشرف»، شرق الذكورة والأنوثة، شرق السلطة الرجالية والرضوخ النسائي؟ كيف لا، وهو يعرف أن تجميعه للتجارب الجنسية دليل فحولة، أما تصرّف المرأة بجسدها (هديّته) فعهر وانحلال أخلاقي! كيف لا، وهو يعرف أن ما هو محرَّم على المرأة مسوَّغ له، وأن شريعة الذكر صاحب «الحق»، هي السائدة مهما تكن أثمانها، أما الباقي فكلام بكلام! كيف لا، وهو يعرف أن المرأة، مهما تنل من الشهادات وتتولّ من المناصب، فسوف تظل في عرفه وعرف مجتمعه الذكوري، نكرة إلى أن تتزوج وتنجب! فالمرأة «مقدَّرةٌ» للزواج لا محالة في شرقنا العزيز، شاءت ذلك أو أبت، وإن مئة كذبة وألف خدعة ومليون فخّ، كلّها أهون، عندها، من صفة عانس.

هل يبدو لكم كلامي هذا تنظيراً بلاغياً تعميمياً؟ حسناً. هاكم المثال، حديثاً «ملموساً» وعبثياً ومثيراً للسخرية، على معادلة المكيالين هذه: قد سمعنا جميعاً بالـ «جريمة» المرعبة النكراء التي ارتكبت أخيراً في المملكة العربية السعودية. جريمة يحار المرء كيف يصفها، ومن أيّ زاوية يحلّل أبعادها ومسبّباتها. شيء واحد أكيد: مرتكبها، بل على الأصحّ مرتكبتها، تستحق أن تنزل بها أشد العقوبات. إذ كيف تجرؤ منال الشريف على قيادة سيارتها بنفسها في إطار حملة «سأقود سيارتي بنفسي» التي انطلقت على الـ «فايس بوك» في شهر حزيران من سنة 2011؟ أيّ عالم منحلّ هو هذا الذي «يسمح» للمرأة بأن تمارس فعلاً مشيناً ولاأخلاقياً كهذا على مرأى من الجميع؟ حسناً فعلت المديرية العامة للسجون في المملكة العربية السعودية بأن مدّدت أخيراً حبس «المذنبة» عشرة أيام في إصلاحية سجن الدمام: التساهل حيال ارتكابات منحطّة كهذه، غير مسموح. فمن يعلم؟ قد تكون جرثومة مبادرتها هذه معدية، فيخطر لنساء أخريات أن يقمن بالشيء نفسه، أو حتى أن يطالبن بأن يجري التعامل معهنّ كبشر، كما لو أنهنّ مساويات للرجال في الإنسانية. باطل!

قيل إن والد المتهمة قدّم اعتذاراً نيابةً عن ابنته وتعهد بعدم تكرار ارتكاب «الخطأ» مطالباً بالصفح عنها، ودعا لها بـ «الهداية». يقال أيضاً إن ناشطات سعوديات إسلاميات ندّدن بهذا الانتهاك المقرف، وصرّحن: «هناك أولويات أكبر من القيادة، كالحاجة إلى الإصلاح الاجتماعي والثقافي والاقتصادي»، علّقت الناشطات الشاطرات. وأضفن أن أيّ امرأة تغرّر بها الليبيرالية وتقوم بأفعال

مماثلة تستحق أن يُبصق على وجهها وأن تتعرّض للجلد. فمرحبا «ناشطات»، ونيّال المرأة وكرامتها بنساء كهؤلاء النساء.

صرخة منال الشريف تلك في وجه الظلم والظلامية، هي صرختنا كلّنا، أكنّا نعاني ما تعانيه أو ما يشبهه (سبل إذلال المرأة لا تحصى في مجتمعاتنا).

أيضاً وأيضاً على مستوى المعايير المزدوجة، يحضرني مثال ثانٍ، يتجسّد في حادثة جرت إثر مشاركتي في ندوة حول الجنسانية والشباب في العالم العربي، في الجامعة الأميركية في بيروت. كنتُ تناولت في مداخلتي موضوع التمييز الجنسي الذي تتعرض له المرأة العربية، وتحديداً مسألتَي جرائم الشرف، والاحتفاء بعذرية المرأة، كبرهانَين من بين براهين لا تُحصى على ازدواجية التعاطي مع الجنس والحرية الجنسية في بلداننا. إلا أن أحد الصحافيين الأفذاذ المتابعين للندوة رأى أن كلامي على هاتين المسألتين هو... «بورجوازية». الأخ الشهم، الذي يؤمن باليسارية المتحالفة مع الجهات المتطرفة دينياً، ولا يحلف إلا بها، لكونها اختراعاً بلدياً بامتياز، على غرار التبّولة، اعتبر على ما يبدو، الكلام على حرية المرأة الجنسية في العالم العربي ضرباً من ضروب الترف.

شخصياً، لقد شبعتُ ممن يقولون لي إن حقوق المرأة العربية (الجنسية والقانونية والاجتماعية والسياسية الخ) ترف «إكزوتيكي»، وإنه ينبغي لنا قبلاً تحقيق الديموقراطية، ومحاربة الفساد الاقتصادي، وفضح الانتهازية السياسية، ووو...الخ. الترف الحقيقي في دنيانا هذه، الذي بات ينبغي لنا الاستغناء عنه، وما عاد من المقبول أن ندفع أثمانه، هو خطاب هذا الرجل وخطاب أمثاله: ذلك هو وجه «البورجوازية» الخبيث، الكاذب، المقيت...

هل حرمان المرأة العربية حقوقها كإنسان، هو الشيء الوحيد الذي يحول دون تطوّر العالم العربي؟ هل الحرية الجنسية هي المعركة الوحيدة التي ينبغي خوضها في العالم العربي؟ بالطبع لا. فوقف الجرائم الاسرائيلية في فلسطين أولوية، طبعاً ومن دون شك. ومحاربة الديكتاتورية والجوع والظلم أولوية، طبعاً ومن دون شك. والتصدي للفساد والكذب والطائفية والتطرّف الديني أولوية، طبعاً ومن دون شك. لكن احترام حقوق المرأة وتكريسها هو أيضاً أولوية. أولوية أيضاً وأيضاً، التخلص من الذكوريين المتقنّعين تارةً بالنضالات البروليتارية، وطوراً بحجة «حماية المرأة وعرضها وطولها» من الانتهاك. هذه هي المعركة التي تعنيني شخصياً، ولكل إنسان الحق في اختيار معاركه. لائحة المظالم العربية طويلة أيها السيدات والسادة: أنا اخترت، فتفضّلوا واختاروا.

* * *

كثيراً ما سُئلتُ، عند صدور هذا الكتاب بالإنكليزية لعام خلا، وإثر اندلاع موجة الثورات في العالم العربي، عما إذا كان الغضب الذي شاء أن يعبّر عنه (وهو غضبٌ في معنى السخط وطفح الكيل، لا في معنى فشة الخلق العابرة) لا يزال مبرّراً.

حسبي أنه غضب بات اليوم أكثر صدقية وحتميةً من ذي قبل.

السبب؟ حُكي ويُحكى الكثير عن الثورات الشعبية المتتالية التي يشهدها العالم العربي اليوم، لكن القليل مما يُحكى يتطرّق إلى «مصير» النساء في هذه البلدان. ترى، ألم يحن لرياح التغيير التي هبّت على العالم العربي، أن تلفح وجوه النساء العربيات وحقوقهنّ وحيواتهنّ المرتهنة؟

قد رأيناهنّ جميعاً، نساء تونس ومصر الباسلات، يشاركن في التظاهرات ويدعون إلى إسقاط الديكتاتوريات ويسهمن في الاحتجاجات. «رأيناهنّ»، أقول، وهو فعل ماضٍ بامتياز، إذ أين هؤلاء

النساء الآن، في ساعة تشكّل بنى الأنظمة الجديدة، حيث ثمة حاجة ماسة إلى أصواتهنّ ومشاركاتهنّ الفاعلة في صنع نسيج الحياة المقبلة ومبادئها؟ أيّ ثورات هي هذه، إذا كانت المرأة ترضى بأن تكون محض بيدق «يُحرَّك» عند الحاجة، ويُهمَل ساعة القرار؟ أيّ ثورات، أقول، إذا لم تقلب هذه الثورات طاولة البطريركية على رؤوس الظلاميين، وإذا كانت سترسي شكلاً جديداً من أشكال التخلف بدلاً من ذاك الذي سبق؟ مَن الرابح في لعبةٍ، نصف المشاركين فيها محض متفرجين، أعني تحديداً «متفرجات»؟

أكرر: رأيناهنّ جميعاً، أولئك النساء، يمشين في التظاهرات ويصرخن ويناضلن ويطالبن بالتغيير. جلّ ما آمله، أن يكون بعض هذا التغيير المستحق الذي طالبن به، ولا يزلن، يتعلق بحقوقهنّ ودورهنّ في هذه المجتمعات. فحقوق المرأة ليست ترفاً، ولا هي بند ثان أو ثالث في لائحة الشروط التي تسهم في إقامة دول وأنظمة حرّة وديموقراطية. بل هي بند أوّل وأساسي، ينبغي له أن يترافق بالتوازي مع البنود الأخرى.

في مصر اليوم، نساء يخضعن لاختبار العذرية، ومثقفات يؤكدن على شاشات التلفزيون أن «المرأة لم تخلق للمشاركة في الحياة السياسية»! أما في اليمن، فالشغل الشاغل لعلي عبد الله صالح، أمام المطالبات الشعبية المحقّة بسقوط نظامه وبناء دولة مدنية حديثة، كان «جريمة» الاختلاط التي حدثت في شوارع صنعاء بسبب نزول النساء إلى الشارع ومساهمتهن في الاعتصامات!

فهل الثورات التي تجري اليوم في العالم العربي هي أيضاً ثورات نساء؟ في هذا المعنى، هل هي ثورات حقاً؟ ربما من المبكر، والمتسرّع، إصدار حكم قاسٍ حول ذلك. لكنّ الأكيد أن البشائر التونسية والمصرية لا تعد بالخير، وأننا لا نزال بعيدين عن التخلص من احتكار الذكورة للحياة العامة والخاصة.

في ظل الأنظمة العربية (الساقطة منها وتلك التي لا مفرّ ستسقط) القائمة في معظمها على تجاهل حقوق النساء وانتهاك كرامتهنّ، متى تنتقل المرأة في العالم العربي من لازمة «أعطوني حقوقي» إلى صرخة «سآخذها بيديّ، حقوقي»؟ متى تؤمن بأن حقوقها هذه، ليست ترفاً، بل أولوية؟ متى تصدّق أنها لم تولد فقط لتتزوج وتنجب وتطيع وتختبئ وتباع وتخدم ذكور عائلتها؟ متى تعي أن الحديث عن الديموقراطية هراء، بدون استتباب مساواتها مع الرجل في إطار علماني؟ وأن الحديث عن الحرية هراء، بدون احترام حرياتها؟ وأن الحديث عن التغيير والتحديث هراء، بدون النظر في وضعها وموقعها؟ متى تستشيط حيال الإهانات الهائلة التي تلحق بها وتهدف إلى إلغائها يومياً، وفي المجالات كلها؟ متى تقفز من شرنقتها وتتحوّل فراشة شرسة تحفر طريقها بأظفارها الناعمة والحادة في آن واحد؟ متى تستخدم فكرها وصوتها ولسانها، بدلاً من أذنيها فحسب؟ ومتى تكفّ، خصوصاً، عن المساهمة في ترسيخ النظام البطريركي وقيمه البالية وأسلاكه الشائكة: أي، متى تولد لنا نساء عربيات لا يكنّ انتقاماً من المرأة؟ ولا يشتهين سرّاً وحصراً المحبس والحبس وما يرافقهما، ولا يحلمن ليلاً بسوى الفستان الأبيض والزفّة والمدعوّين والمدعوّات، وذلك مهما نلن من الشهادات وتولّين من المناصب؟

متى تنفجر «قنبلة» المرأة العربية؟ أعني قنبلة قدراتها وطموحاتها وحريتها ومكانتها وحقوقها؟ قنبلة غضبها على ما يُفرَض عليها فرضاً وتقبله غالباً كقَدَر من دون مساءلات؟ أعني قنبلة إيمانها هي بنفسها خصوصاً؟

هل قلتم ثورات؟ هل قلتم كوّة ضوء؟ عذراً، ولكن من حيث أنا، وأمامي هذا الجدار وركائزه وحجارته المرصوفة المتراصّة، نحن موجودون، تقريباً، في العصر «الحجري»: سيزيفيون بامتياز، والجدار صخرتنا.

الحلّ؟ واحدٌ.

ليس في ترقيع الجدار. ولا في «طرشه» ودهنه لإخفاء علاّته. ولا في «تظبيطه». ولا في تدوير زواياه. ولا في «الملحسة» عليه. ولا في العواء أمامه. ولا في محاولة «تجليس» اعوجاجاته (تعرفون من دون شك قصّة ذنب الكلب). ولا في الدعاء عليه بالهدم.

الحلّ هو الهدم. ثم الهدم. ثم الهدم. فالبناء من جديد. رجالاً ونساءً، معاً واليد في اليد.

هذه هي الثورة التي نحتاج. هذه هي الثورة التي نستحقّ.

وما هذا الكتاب المتواضع الذين بين أيديكنّ وأيديكم، سوى صرخة صادقة من صرخاتها.

ج. ح.

بيروت، 2 آب 2011

ملاحظة إلى القارئ

ولدت فكرة هذا الكتاب عندما طرحت عليّ صحافيةٌ أجنبية، ذات يومٍ ممطر من شهر كانون الأول 2008، السؤالَ الآتي: «كيف بلغت امرأةٌ عربية مثلك حدّ نشر مجلة إيروتيكية مثيرة للجدل، على غرار «جسد»، باللغة العربية؟» أخذت تستفهم إن كانت تنشئتي أو خلفيتي قد انطبعت بعناصر محدّدة، أو حفلت بعلامات منذرة، مهّدت الطريق لمثل هذا القرار الجدليّ و«غير المألوف».

لم تكتفِ الصحافية بهذا القدر، بل مضت تسوّغ وتضيف: «معظمنا في الغرب ليس معتاداً على... مجرّد إمكان وجود امرأة عربية متحرّرة مثلك».

في طبيعة الحال، كانت تقصد من كلامها أن تقدّم إليّ طيّبَ عبارات الجميل والثناء، لكنني أذكر أنّ كلماتها استفزّتني كل الاستفزاز، حتى انتزعت مني إجابةً يشوبها شيءٌ من الفظاظة والحدّة: «لا أعتقد أنني امرأة استثنائية. فما أكثر «النساء العربيّات المتحرّرات» مثيلاتي! أما إذا كنتم غير مدركين لوجودنا، كما تزعمين، فهذه مشكلتكم وليست مشكلتنا». في وقت لاحق من ذلك المساء، استعدتُ كلامي فساءني ردّ فعلي الدفاعي وندمتُ على ما فرط مني. على رغم ما حدث، بقي سؤال الصحافية المذكورة عالقاً في ذهني، يتردّد صداه في مختلف أنحاء رأسي، وأنا أحاول أن أفهم ما الذي حدا بها إلى طرح سؤالها هذا، ولِمَ أثار حنقي على هذا النحو. وإذا بهذه المحاولة للقبض على سرّ ما حدث تتحوّل إلى نصّ صغير، والنصّ الصغير يستحيل مقالةً مسهبة؛ والمقالة المسهبة تنمو وتتوسّع لتصبح عرضاً؛ والعرض يمتزج ويتلوّن بنصوص أخرى كنتُ قد كتبتها عن الموضوع نفسه في مناسبات سابقة متنوّعة؛ وإذا بهذا المزيج كله يعانق بعض الملاحظات ذات الصلة التي كنت قد دوّنتها على امتداد السنوات المنصرمة، كاشفةً فيها تفاصيل من سيرتي الذاتية. فكانت النتيجة كتاباً: هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

تُرى أفكرة جيّدة هي أم سيّئة؟ أضرورية أم لا تمتّ إلى الموضوع بصلة؟ أمغالية في العموميات؟ أمجتاحة للخصوصيات؟ أمنطوية على مجموعة من الأفكار المشتّتة الضائعة؟ أمنغمسة في الذاتية؟ لعلّ الأوان قد فات اليوم على رسم علامات الاستفهام المتكرّرة هذه. جلّ ما أعرفه هو أنّ ترجمة هذه

الأفكار على الورق كانت حاجةً ملحّة بالنسبة إليّ، لا سبيل للهروب منها. لكأنها قصة حبّ. وحسبي بهذا، بالنسبة إليَّ على الأقل، تبريراً وتعليلاً.

لكن، مع اتّخاذي قراراً بنشر هذا العمل، أجدني آمل أن أستمدّ منه، يوماً تلو الآخر، المزيد من الأسباب التي تبرّر هذا القرار، كلّ ذلك بفضل الحياة الجديدة التي ستنفحونها، أنتم القرّاء، في شرايين هذه الصفحات.

ويا عزيزتي «جيني»، أرجو منك أن تقبلي اعتذاري المتأخر جداً عن الفظاظة غير الضرورية التي قابلتك بها. آمل أن تعتبري هذه الشهادة المتواضعة محاولةً - غير مرتبكة تماماً - لأقول لك : «أنا آسفة».

والأهمّ من ذلك كله: «شكراً لك».

كلمة أولى: قلم إيتل عدنان

هل سمعتم آخر خبر؟ لقد ماتت شهرزاد، اغتيلت!

أكانت جريمةً عاطفية أم فعلاً مخطّطاً له بدقة وعقلانية؟ كلا الأمرين على الأرجح. لقد أقدمت جمانة حداد، لتوّها، على قتل بطلة حكايات ألف ليلة وليلة. لعَمري ما سمعت بجريمة أكثر مدعاةً للبهجة، ولا احتفاءً بالأخلاقيات، من هذه الجريمة.

قصة هذا الاغتيال هي قصة ريح هوجاء ترقص مجنونةً لتبدّد اكفهرار السماء. لا أعني بذلك سماء الديانات التوحيدية، بل السماء التي هي جسد المرأة، جسدها الخاص الذي لا ينتمي إلا لها وإليها.

كان لا بدّ من القضاء على هذه الخرافة التاريخية كي يتمكّن الجسد، تالياً العقل بدوره، من التحرّر والتفلّت من أسره؛ كان لا بدّ من خطّ هذه التجربة عساها تكتسي، برداء الكلمات، وجوداً وتأكيداً.

لذا قبل الاستماع إلى الضجيج، حريٌّ بنا أن نرهف آذاننا لنصغي إلى الصمت. قبل الكلمات الطنّانة والعبارات الضوضائية، هنالك دوماً الكلمة الأولى، وجود الجسد؛ وحبّذا لو، كما تقترح جمانة حداد، لا نضيّع أنفسنا في تمجيده وامتداحه، بل ننشغل في الإصغاء إليه.

أحبّ تحليلها السردي هذا الذي يتردّد صداه في الأذهان كلحن جاز أو موسيقى راب. لكنه، مع ذلك، اتهامٌ قائم على منطق سديد، يتخلّله بعضٌ من غضب، لا بل أكثر من غضب؛ يتخلّله بحث صوفي - باطني - عن التحرّر المطلق، وهذا أمرٌ لن يتحقّق إلا من طريق التحرر من علاقة «المفعول به - الفاعل» التي يمثّلها هذا الجسد الذي عنده تبدأ الحياة وتنتهي.

لكنّ الجسد يقع، منذ الولادة، في شرك البيئة الاجتماعية، مما يحرّك عجلة الموانع والقيود، لا بل يدفعنا أيضاً نحو العبودية.

ترفض جمانة حداد التدابير المعتدلة والحلول الوسطى. عندما كانت ابنة بلد تدور فيه طاحونة القتل (لأسبابٍ واهية جداً)، فقد تسلّحت بردٍّ لا يقلّ عنفاً واتّقاداً، وإن كان ذا طبيعة مختلفة. بالفعل، وجّهت جمانة طعنةً في قلب كل المحظورات والتابوهات، فإذا بـ «جريمتها» تلك تصبح ولادةً، لا بل فعلَ حياة.

تتحدّث جمانة حداد عن المرأة العربية، عن مشاعرَ ألفتها ومواضيع خبرتها، لكنّ ما تقوله يعني النساء كلهنّ، على امتداد المراحل التاريخية المختلفة، لا سيما نساء المنطقة المتوسطية، أولئك اللواتي قيل لهنّ، بنبرة تكتنفها هالة من السلطة المقدّسة، إنهنّ مجرّد نتاج ثانوي للخليقة: فالله الذي خلق آدم، انتزع حوّاء من ضلع هذا الأخير ليس إلا. في ظلّ هذه الأجواء، ظهرت حداد وفي جعبتها بشائر مختلفة. قالت إنّ المرأة لا تأتي إلا من نفسها، ودعتها إلى صنع نفسها، أو خلق نفسها - تماماً كما الرجل. بالنسبة إليها، يجب أن تستحيل المرأة شهرزاد جديدة، فتكتب حكاياتها بريشتها الخاصة لتشارك في خلق العالم من خلال الأدب.

تحمل إلينا جمانة حداد أسئلةً حرجة تتعلّق بالهوية واستعادة الجذور، لا نحو الأنا الاجتماعية التي تعتبر أكثر نرجسيةً مما قد نحسب، بل نحو الحرية التي اكتشفتها في طفولتها والتي تمثّل المكان المتبدّل دوماً للانطلاقة الدائمة.

ذلك كله يصبح موضع شكٍّ بمزيج من الفرح العارم والذكاء الفائض اللذين يحملاننا على جناحيهما، في نصٍّ هو، في نهاية الأمر، قصيدةٌ بربرية.

إنّ بلوغ مثل هذه الحرية الجذرية يتطلّب عبقريةً فذّة.

كي أبدأ... في موضوع الجِمال ، الرقص الشرقي ، السكيزوفرينيا وغيرها من الكوارث الزائفة

عزيزي القارئ الغربي،

اسمح لي أن أحذّرك منذ بداية هذه السطور: لا يُعرَف عني بأنني أسهّل على الأشخاص حياتهم. فإذا كنتَ تبحث، في طيّات هذه الصفحات، عن الحقائق التي تخال أنك تعرفها، أو الدلائل التي تعتقد أنك قد تشبّعتَ بها؛ إذا كنتَ تتوق إلى من يطبطب على آرائك الاستشراقية، أو يطمئنك إلى صحة ما تحمله من أحكام مسبقة ضدّ العرب؛ إذا كنتَ تتوقّع أنني سأطالعك، ها هنا، بتلك التهويدة التي لا

تنتهي عن صدام الحضارات، فحريّ بك ألاّ تمضي قدماً. في هذا الكتاب، سأبذل كل ما في وسعي «لأخيّب أملك». سأحاول أن أحرّرك من الأوهام، وأجرّدك من الخرافات والأفكار الجاهزة المنطبعة في رأسك. كيف؟ حسبي أن أقول لك الآتي:

على رغم أني «امرأة عربية»، فأنا ونساء كثيرات غيري نرتدي كل ما يحلو لنا، نرتاد كل الأماكن التي تعجبنا ونجهر بكل ما نريد أن نقوله؛

على رغم أني «امرأة عربية»، فأنا ونساء كثيرات غيري لسنا محجّبات، أو مقهورات، أو أميّات، أو مضطهدات، ولسنا بالتأكيد خاضعات؛

على رغم أني «امرأة عربية»، فما من رجلٍ يمنعني، أنا أو نساء كثيرات غيري، من قيادة سيارة، أو دراجة نارية، أو شاحنة (أو حتى طائرة!)؛

على رغم أني «امرأة عربية»، فأنا ونساء كثيرات غيري قد تابعنا تحصيلاً علمياً عالياً، ورسمنا لأنفسنا حياةً مهنية ناشطة، كما نحقّق دخلاً يفوق ما يجنيه الكثير من الرجال العرب (والغربيين) ضمن حلقة معارفنا؛

على رغم أني «امرأة عربية»، فأنا ونساء كثيرات غيري لا نعيش في خيمة، ولا نركب الجِمال، ولا نتقن فنّ الرقص الشرقي (إذا كنتَ تنتمي إلى «معسكر المتنوّرين»، فإياك والانزعاج من كلامي هذا: صحيحٌ أننا نعيش في عصر العولمة وفي عالم القرن الحادي والعشرين المفتوح على جميع الأطراف، لكن مِن الناس من لا يزال يصوّرنا على هذا النحو)؛

أخيراً وليس آخراً، على رغم أني «امرأة عربية»، فأنا ونساء كثيرات غيري... نشبهك إلى حدٍّ كبير!

نعم، نحن نشبهك كثيراً، وحياتنا لا تختلف عن حياتك بهذا القدر. ليس هذا فحسب، بل أنا على يقين أيضاً أنك، إذا أطلتَ التحديق في المرآة، فسترى أعيننا تلمع على محيّاك.

نتشابه كثيراً، أنت ونحن، لكننا في الوقت عينه مختلفون. لا أقول ذلك لأنك ابن الغرب ونحن أولاد الشرق، ولا لأنك غربيّ الثقافة ونحن شرقيّو الهوى. لا أقول ذلك لأنك تكتب من اليسار إلى اليمين، فيما نخطّ حروفنا من اليمين إلى اليسار. نحن مختلفون لأنّ جميع البشر على وجه هذه الكرة الأرضية مختلفون بعضهم عن بعض. نختلف عنك بقدر ما تختلف أنت عن جارك أو جارتك. وهذا ما يضفي على الحياة نكهةً مميّزة، وإلا لكنّا جميعنا هلكنا ضجراً وسأماً.

أو في الأقل، أنا التي كنت سأهلك من الضجر والسأم.

من هذا المنطلق، أرجو ألاّ أكون قد أثرت اهتمامك، أو يكون كتابي قد جذب انتباهك، للأسباب غير المناسبة: فلستُ حالةً مثيرة للاهتمام لمجرّد كوني «من العرب»، أو لكوني «امرأة عربية»، كما أنني بالتأكيد لست مثيرةً للاهتمام لمجرّد أنني «كاتبة عربية» (يا لهذه التصنيفات الكارثية، لا سيما بالنسبة إلى شخص يعاني رهاب الألقاب مثلي!). في الواقع، السبب الوحيد، والمقبول، الذي يدفعك لقراءتي، أو لاعتباري موضوعاً مثيراً للاهتمام، بل السبب الوحيد، والمقبول، الذي يجعل من أي إنسان حالةً مثيرةً للاهتمام على الإطلاق، هو فردانيته، دونما التقيّد بلقب آسر ولامع يفترض به أن يمثّله.

لذا، عوضاً من الاستسلام تلقائياً لصورة معيّنة نحتها شخصٌ آخر بالنيابة عنك، جرّب أن تسأل نفسك مرّةً: «ما معنى أن تكون المرأة «امرأة عربية» في كل حال؟».

ما هذا الكتاب سوى محاولة متواضعة للتعمّق في هذه القضية. فهو لا يدّعي امتلاكه إجابات عن الأسئلة المطروحة، ولا يزعم اكتشافه حلولاً للمشكلات المعروضة، كما لا يقدّم إلى القارئ أيّ عبرٍ ولا يدعوه إلى التزام أيّ صيغ. جلّ ما يطمح إليه هذا العمل هو تقديم شهادة ودراسة تأمّلية على السواء حول واقع المرأة العربية، وما الذي تعنيه، ويمكن أن تعنيه، تلك الصفة اليوم. لكنه لا يكتفي بهذا القدر، بل يحرص أيضاً على تحقيق هدفه المذكور بعيداً من الخطاب البلاغي، بكل ما يقوم عليه هذا من لغة جافة ومملة، بعيداً من الأنا بمعناها الضيّق التي تميّز السير الذاتية عادةً، وبعيداً من الاستعارات الخيالية التي تحفل بها الروايات.

لكن، عزيزي القارئ الغربي، لا تحسب من كلّ ما تقدّم أنك، أنتَ، المخاطَب المباشر في هذا الكتاب: فهو لا يستهدفك وحدك، بل يتوجّه نوعاً ما، وفي بعض الأحيان بشكلٍ أساسي، إلى المواطنين العرب أمثالي. لذا، يمكن اعتبار هذا العمل، إلى حدٍّ كبير، جهداً منضوياً تحت لواء النقد الذاتي. صحيحٌ أنه سيحاول إلقاء الضوء على النقاط التي تفتح باب الأمل أمام النساء العربيات المعاصرات، إلا أنه لن يتردّد أيضاً في كشف النقاب عن نقاط ضعفهنّ، والتحديات التي تواجههنّ، فضلاً عن المشكلات التي يصطدمن بها، يتسبّبن بها أو لا يعالجنها. لأجل ذلك، يمكن هذه الحركة ما بين مدّ وجزر، ما بين وصف واقعنا المرير وإدانته من جهة، ومحاولة تأكيد وجود بصيص نور في نهاية النفق من جهة أخرى، أن توحي أحياناً وكأنّ كاتبة هذه السطور تناقض نفسها. فأنّى لأحدٍ أن يدعم رؤيا معيّنة، فيما يقوم، في الوقت نفسه، بتشويه الصورة الأساس التي تقوم عليها هذه الرؤيا؟ لكنّ هذا الإيحاء ما هو إلا أطياف وهم، كما أنه النتيجة المباشرة والمنطقية لمن يعتمد درجةً دقيقة وحرجة من النزاهة. فما من دفاع عن النفس يستحقّ أن يؤخذ على محمل الجدّ إذا لم يكن يترافق مع، لا بل يستند إلى، قدرٍ مماثل من النقد الذاتي. من هنا، إذا كنتُ قد كشفتُ عن عيوبنا ونواقصنا بقلم لا يرحم، فاعلم أنها وسيلتي لإلقاء الضوء، بشكل أفضل، على استثناءات لا سبيل إلى إنكارها، تكمن في طيّاتها.

والعكس بالعكس.

* * *

«القصص لا تحدث إلا لأولئك الذين يجيدون سردها» (بول أوستر). لكي أتمكّن من سرد بعضٍ من قصصي، والتفكير في معنى أن أكون امرأة عربية اليوم، عليَّ أولاً أن أوجز بعض العناصر التي تبيّن معنى أن تكون عربياً بشكل عام.

أن تكون عربياً اليوم يعني، أولاً وخصوصاً، وإن من دون تعميم، أن تتقن فن السكيزوفرينيا. لماذا؟ لأنه يعني أن تكون خبيثاً. يعني أن يكون ممنوعاً عليك أن تعيش وتفكر وتقول ما تريد عيشه والتفكير فيه وقوله، بصدق، وعفوية، وشفافية. ممنوع عليك أن تقول الحقيقة الفجّة (الحقيقة دائماً فجّة، وهنا دورها وقوّتها)، لأنّ الغالبية العربية تحتاج إلى وهم الأكاذيب المطمئن. ينبغي أن تكون حياتك وقصصك مكبوتة ومقموعة وسرّية ومحرّفة، وأن تعاد كتابتها بما يتلاءم مع عذرية حارسي غشاء البكارة العربية، ليطمئن هؤلاء إلى أنّ هذا الغشاء لا يزال سالماً من كل عيب ونقيصة.

الظلاميون يتكاثرون في ثقافتنا العربية كالفطريات، وبتنا نعثر على أشباههم في كل مكان، وفي كل مسألة. نفوسهم طفيلية، قلوبهم طفيلية، عقولهم طفيلية، وأجسادهم طفيلية. ولا قدرة لهم على العيش إلاّ كطفيليات. من شيمهم تشويه كل شيء حرّ، وخلاّق، وجميل، وخارج على سرب التفاهة

والنفاق والازدواجية، لمصادرته، ولإلغائه. وإذا استطاع أحدٌ من الناس أن تنمو حريته، وأن يشعّ خلقه وجماله، أطلقوا العنان للحقد، والحسد، والنميمة، وحملات التشويه والتنكيل، لتدمير هذين الحرية والجمال الخلاّق.

أكرّر: الظلاميون يتكاثرون في ثقافتنا كالفطريات، هذه الثقافة التي تدّعي الانفتاح حين يناسبها ذلك، و«المحافظة» حين تكون المحافظة أكثر تماشياً مع مصالح الساعة. جبال من الهرطقة، والهراء، والمعايير المزدوجة. هؤلاء «العسكر» يدافعون عن العفّة، والعفّة منهم براء. يدافعون عن القيم، والقيم منهم براء. يدافعون، من جهنّمات عقولهم ونفوسهم وأجسادهم المريضة والمعقّدة، عمّا يجرؤون على تسميته بالشرف والكرامة والأخلاق، ملوّحين بحجة «حماية أديانّنا وعاداتنا وتقاليدنا وأجيالنا الشابة»، في حين أنهم يتعامون عمّا يجري على شاشات التلفزيون، وعلى مواقع الإنترنت، وفي السهرات، وداخل الغرف المغلقة، وحتى في أماكن العبادة، ولا يفهمون من الشرف والكرامة والأخلاق سوى «ذَنَبها». أي ما هو ظاهر منها فحسب.

هؤلاء هم سارقو الحياة الشخصية، سارقو حرياتنا الفردية والمدنية (حرية العيش، حرية الخيار، حرية التعبير ...)، سارقو الدين ومشوّهوه وقاتلوه. وسارقو الثقافة ومشوّهوها وقاتلوها. وسارقو المستقبل ومشوّهوه وقاتلوه. وسارقو المدنية ومشوّهوها وقاتلوها. وسارقو تراثنا العربي النيّر ومشوّهوه وقاتلوه. وهلمّ.

أكرّر: إنهم سارقون. ومشوّهون. وقاتلون. وفوق هذا كلّه: أغبياء . ولعلّ هذه هي الطامة الكبرى في حق هويتنا العربية المعاصرة.

* * *

أن تكون عربياً اليوم يعني أيضاً، في الدرجة الثانية، ومجدداً من دون تعميم، أن تكون جزءاً من قطيع. أن تتخلى تماماً عن فردانيتك وتنساق بعماء وراء زعيم أو قضية أو شعار. يقول العرب: «الأمم تُبنى بالجماعات»، ولطالما عزّز هذا الكلام نفوري الفطري من التجمّعات والإيديولوجيات والكفاحات الجماعية، حتى تلك التي تهدف إلى خدمة قضايا نبيلة، وتعلّقي الشديد بفرديتي، وإيماني الراسخ بفاعلية هذه الفردية: أعني بذلك الفردية «الحسنة النية» التي تحترم وجود الآخر واحتياجاته، وتعترف بها وتأخذها في الاعتبار، لكنها في الوقت نفسه تقاوم، وبثبات، كل محاولة لصبغها بلون متجانس وصبّها في قالب واحد.

في طبيعة الحال، ليست ذهنية القطيع مشكلةً محصورة في العرب دون سواهم، وخصوصاً في عصر الشعبوية السياسية هذا الذي نعيش فيه. فلسوء الحظ، نشهد اليوم وقوع دول عديدة، منها تلك الدول المتطوّرة المزعومة، في فخّ «السير الأعمى وراء القائد ولو كان نذلاً»: كيف إذاً نفسّر، على سبيل المثال لا الحصر، استمرارية عهد جورج دبليو بوش في الولايات المتحدة الأميركية لفترة طويلة من الزمن؟ لكن، في العالم العربي (على الأقل في عالمنا المعاصر، كي نكون منصفين بحقّ إرثنا العظيم)، ليس هذا المرض «مجرّد حقبة قاتمة في التاريخ»، بل حالة دائمة. كيف لا والعالم العربي يغفل عن حقيقة مفادها أنّ الجماعات هي تراكم نوعي للأفراد والذوات والأنوات، وأنّ هذه الجماعات إذا لم تكن قائمة على كل شخص بذاته، وبما هو عليه، فكراً ورأياً وشعوراً وجسداً وروحاً ومزاجاً، تدمّر ذاتها بذاتها، وتنقلب على نفسها، لتصير أشبه بالقطعان التي «تسيّرها» العلامات

العامة والغرائز، على غير هدىً من أمرها، وبدون فائدة تُرجى، بحجة «الجماعات على حساب الأفراد».

أعرف تمام المعرفة ماذا تعني، في مجتمعاتنا العربية، عبارة من مثل «الجماعات على حساب الأفراد». فتحتَ ذريعة هذه الحجة، يجري تنظيم الشعوب، وضبطها، ومحو خصائصها المتنوعة والمتعددة، وتكتيلها تكتيلاً يشبه حياة القطعان، بما يمنع عنها الرأي الشخصي، والموقف الشخصي، والشعور الشخصي، والمزاج الشخصي، والفهم الشخصي، والقول الشخصي، والحب الشخصي، والجسد الشخصي، والحياة الشخصية، بحيث يتماهى الأفراد في هذه الشعوب تماهياً جماعياً مع التوجه المجتمعي والديني والشعوري والسياسي العام، الذي تكون السلطات قد دجّنته وروّضته ونزعت «مخالبه» الفردية، بما يفضي عملياً وموضوعياً إلى انعدام كل وجود للذوات الشخصية تحت وطأة الوجود العام. أما النتيجة فهي، في غالب الأحيان، إن لم يكن فيها كلها، أنّ الأفراد يطيرون في مهبّ رياح الجماعة الأعمى، و«يذوَّبون» في فرن الجماعات القطيعية، فلا يبقى أيّ أثر للأنا، ولا أيّ دور خلاّق لها، ولا حتى صوت استغاثة من أسفل هذه الجحيم. ذلك كلّه يساهم في تعزيز الكليشيهات المنتشرة عن العرب والترويج للصور النمطية المتداولة عنهم. فكلّما زدنا تكتّلاً، بعضنا على البعض، ورفعنا الصوت تعبيراً عن آرائنا، أساء السامع فهم خطابنا. هل من دوّامة أكبر من تلك التي تجرفنا فيها هذه الحلقة المفرغة؟

ولكن أيّ معنى للحياة، وأيّ كرامة للجماعات إذا كانت الأنا مسحوقةً تحت أقدام كل شيء، وخصوصاً القطعان؟ متى نعي، نحن العرب، أننا لا نخدم المجموعة، أي مجموعة، سوى بضمان فرديتنا وحمايتها؟ هذا هو فعل الإيمان الأقوى والأكثر فاعليةً في رأيي. لا الكفاحات تفيد، ولا المشاريع «الإنقاذية» و«الإنمائية»، ولا اللجان والمرافعات. أرجو ألا تسيء فهمي: فأنا لا أدافع عن الفردية بمعناها المتأصّل العتيق. لا أقصد الاستناد إلى المقاربة «الداروينية» التي تقوم على إيديولوجية «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، وهي المقاربة التي أنتجت مجتمعاً أنانياً، ظالماً وهدّاماً، حيث لا مكان للضعيف والفقير وحيث الوعي الجماعي والبيئي معدوم. فلا يخفى على أحد أنّ هذا النموذج مضرّ ومتخلّف، شأنه شأن النموذج الاشتراكي الفاشل الذي أقدم، باسم أفكار خلاّبة ومشرقة تمجّد مذهب المساواة، على سحق أفراد وخنق حرياتهم وأحلامهم وحياتهم.

في الحقيقة، ما أتحدّث عنه هنا هو إيجاد توازن عند نقطة معيّنة في الوسط: هذا التوازن الذي يجاهد أشخاص كثيرون من أجل إحلاله. أعني به النتيجة المؤثّرة والشريفة لمنافسة، مؤثّرة وشريفة، ما بين معسكر الرأسمالية ومعسكر الشيوعية - تماماً كما التوازن الذي نجحت في إرسائه بعض الدول في أوروبا الشمالية، إلى حدٍّ كبير على الأقل.

«حرية، مساواة، أخوّة» : ها قد مرّت أكثر من 220 سنة، وما زلنا بعد في أوّل الطريق...

لكن يبدو لي أنّ هذا هو خيارنا الأفضل، ألا توافقني الرأي؟

* * *

أن تكون عربياً اليوم يعني أيضاً، في الدرجة الثالثة - وهذه نقطتي الأخيرة - مواجهة سلسلة لامتناهية من الطرق المسدودة أو المآزق: مأزق التوتاليتارية؛ مأزق الفساد السياسي؛ مأزق المحسوبيات؛ مأزق البطالة؛ مأزق الفقر؛ مأزق التمييز الطبقي؛ مأزق التفرقة الجنسية؛ مأزق الأمية؛ مأزق الأنظمة الديكتاتورية؛ مأزق التطرف الديني؛ مأزق كره النساء، وتعدّد الزوجات،

ورهاب المثلية؛ مأزق الاحتيال المالي؛ مأزق اليأس والفراغ وعدم امتلاك هدف معيّن؛ مأزق نزاع الشرق الأوسط؛ مأزق الأزمة الفلسطينية؛ مأزق تحيّز الغرب؛ مأزق العدائية التي يقابلنا بها، خوفه، ادعاءاته، شكوكه وتصرّفه بفوقية... إلخ.

في الواقع، أن تكون عربياً، أو أن تعيش في العالم العربي اليوم، أقرب إلى ضرب وجهك بحائط سميك، مجبول بالمآزق السياسية والاجتماعية والوجودية الفولاذية. تجد نفسك تطرق وتطرق، ولكنّ شيئاً لا يتغيّر، اللهم إلا عدد الكدمات على جلدك. على رغم ذلك، من واجبك الاستمرار في قرع هذا الحائط من الداخل. هذا هو أملك الوحيد. فلا سبيل إلى تدمير الحائط، أو اختراقه، أو دكّه من خارج. وبالتأكيد لا سبيل إلى أن يتحقّق هذا على أيدي «دخلاء». فالتغيير ليس مادّة «قابلة للاستيراد».

* * *

تقول الكاتبة والممثّلة المسرحية التونسية جليلة بكّار: «يعاني الإنسان العربي مرض السكيزوفرينيا: هي سكيزوفرينيا جماعية نسبح في مستنقعها، ممزَّقين بين ما نؤمن به من جهة وما يريدون منا الإيمان به من جهة أخرى، بين ما تفصح عنه ألسنتُنا وما تجسّده أفعالنا. لكنّ الوقت قد حان لنسمّي الأشياء بأسمائها ونتحمّل مسؤولية أفعالنا». في هذا السياق، بعدما حاولت إيجاز بعضٍ من المقوّمات التي تجسّد معنى أن تكون عربياً في الوقت الحاضر (وأبرزها عارض السكيزوفرينيا، عارض القطيع، وعارض المآزق: ثلاث حقائق قاتمة تواجه الرجال والنساء على السواء)؛ سوف أحاول تالياً، على امتداد صفحات هذا الكتاب الهجين، أن أشرح، من جهة، ما معنى أن تكون المرأة امرأة عربية (عارضةً كل الأفكار المسبقة، والمجحفة بمعناها الضيّق، المتداولة في هذا المجال، فضلاً عن الحقائق التي تتشارك فيها صاحبات هذه الهوية الإشكالية)، ومن جهة أخرى المسؤولية التي تنطوي عليها هذه الهوية والمعنى الفعلي الذي يمثّلها (أي الحلول الإيجابية المحتملة، الممكن تطبيقها على أرض الواقع، على رغم كل المشكلات والتحديات).

لكن قبل أن أسأل: «ما معنى أن تكون المرأة امرأة عربية؟»، لا بدّ من طرح سؤال آخر أولاً: «كيف ينظر غير العربي إلى المرأة العربية التقليدية؟». ألم تتبلور هذه النظرة، أساساً، في الوعي الجماعي الغربي، بواسطة سلسلة من الصيغ الجاهزة والعموميات التي انطبعت في أذهان الناس، إما بفعل رؤية استشراقية لا تزال مستمرة حتى أيامنا هذه، وإما بسبب موقف عدائي مجبول بالكره والخوف والفوقية، تكوّن إثر أحداث 11 أيلول؟

ألا يُنظَر إلى هذه المرأة غالباً كأنثى مغلوبة على أمرها، لا حول لها ولا قوة، محكوم عليها منذ الولادة بطاعة رجال العائلة، من دون قيد أو شرط: الأب، الأخ، الزوج، الابن، إلخ.؟ ألا تُعتبَر إنساناً ضعيفاً، عاجزاً، لا يملك أي قدرة على التحكّم بمصيره؟ ألا تُعامَل كجسد سقطت حصونه الدفاعية، فأمسى أسيراً لمن يأمره متى يعيش ومتى يفنى، متى يتناسل ومتى يختبئ، متى يتضاءل ويصغر إلى أن يتلاشى تماماً؟ أو كوجهٍ غير مرئيّ مثقل بطبقات وطبقات من أقنعة الخوف، والضعف، والجهل، لا بل مشطوبٌ تماماً بممحاة الحجاب الإسلامي؟ لزيادة الطين بلة: ممحاة البرقع السنّي والشادور الشيعي؟ ألا ينظرون إليها كامرأة ممنوعة من التفكير، أو التعبير، أو العمل لأجل نفسها؛ امرأة لا يُسمَح لها بالتكلّم إلا عندما تتلقى إذناً بذلك، ومن ثم تنأى تحت ثقل الإهانة والتجاهل عندما يفضي بها الأمر أخيراً إلى الإفصاح عن رأيها؛ باختصار امرأة لا مكانة لها ولا كرامة على سلّم الإنسانية؟

في طبيعة الحال، ليست كل الكليشيهات خاطئة تماماً. وليست كل الصور النمطية كاذبة كلياً. فالمرأة العربية المذكورة أعلاه موجودة فعلاً. في الواقع، لا أكتفي بالقول إنها موجودة فحسب، بل لأصدقك القول ولأكون دقيقةً دقةً علمية، ينبغي لي أن أعترف، بكل أسف، بأنّ هذا النموذج أمسى، على نحو متزايد، الصورة السائدة بين النساء العربيات في أيّامنا هذه. فأينما توجّهتَ، من اليمن إلى مصر، ومن المملكة العربية السعودية إلى البحرين، فستطالعك السلطات الدينية؛ والأنظمة السياسية اللامبالية، الفاسدة و/أو المتواطئة في الجريمة؛ والمجتمعات الذكورية؛ لا بل حتى المرأة العربية نفسها (فلا يخفى عليك أنّ المرأة هي العدوّ الأول للمرأة، وغالباً ما تشارك في التآمر ضدّ بنات جنسها)، وستكتشف أنها كلها باتت ممتازة في ابتكار طرق جديدة لإذلال المرأة، وإحباطها، وإلغاء هويتها ودورها الشخصي.

لكن على رغم إقراري بهذه الحقيقة، فهذا لا يقلّص مقدار الخزي والأسى والظلم الذي يجدر بنا أن نشعر به، لعدم توافر أي صورة أخرى تقريباً عن المرأة العربية بعيون المجتمع الغربي.

من جديد، أكرّر أنني لا أقصد التعميم في كلامي أعلاه. بل على العكس تماماً: أنا على يقين أنّ الرجل الغربي (أو المرأة الغربية طبعاً)، المطّلع على الطبيعة المعقّدة والمتنوّعة والفسيفسائية لمجتمعاتنا وثقافاتنا العربية، موجود فعلاً. لكنّ المشكلة تمكن في كونه الاستثناء الذي يشذّ عن القاعدة... ليس إلا.

فكم من مرة وجدتني مضطرةً، مثلاً، للشرح أمام جمهور غربي، غارق في الدهشة، أنّ الكثير من النساء العربيات، في هذه الألفية الثالثة، يرتدين فعلاً بلوزات بلا أكمام وتنانير قصيرة، عوضاً من الاتشاح بخمار الرأس والعباءة والنقاب؛ وكم من مرّة وجدتُ نفسي أنفي أن يكون للصحراء أي تأثيرٍ في شِعري، لأنّ لبنان، بكل بساطة، بلد غير صحراويّ.

إن هي سوى سلسلة لا تنتهي من الأفكار المبسّطة، تُنسَج حدَّ تشويه الحقيقة أو إساءة فهمها. أفكارٌ تقتات من الخوف المستشري من مفهوم «الإرهابي العربي» الغنيّ عن التعريف؛ أو لعلّه مجرّد الجهل وعدم شعور الغرب بأيّ فضول للتعرف إلينا؛ أو ربما هو افتتان وسائل الإعلام بالجانب السطحي/المثير لأي خبرٍ أو تحقيق (على غرار قصة نجود، الفتاة اليمنية البالغة من العمر 10 سنين التي زوّجها أهلها رغماً عنها؛ أو حكاية لبنى، الصحافية السودانية التي اعتُقلت وجُلدت بتهمة ارتداء سروال من الجينز).

استناداً إلى المثل الشهير: «دويّ سقوط شجرة واحدة أعلى من حفيف غابة بأكملها تنمو»، متى نولي اهتمامنا لهمسات شجرةٍ تنمو؟

مما لا شكّ فيه أنّ الهجرة من بلدان العالم الثالث العربية، نحو أوروبا وأميركا، قد أدّت أيضاً دوراً مهمّاً في نشر تلك الأفكار الخاطئة المذكورة أعلاه. مردّ ذلك على الأرجح إلى «ردّ الفعل المحصور بالحجاب»: فقد عمد عددٌ متزايد من المهاجرات العربيات، فضلاً عن نساء أوروبيات منحدرات من أصول عربية/مسلمة، إلى ارتداء الحجاب، عقب أحداث 11 أيلول، كردّ فعل دفاعي/هجومي قابلنَ به عدائية الغرب - الظاهرة في الأقل - تجاه الإسلام. في هذا الإطار، لا ريب في أن يسهم ردّ الفعل المرئي هذا في التغطية على المرأة العربية «الأخرى» التي تعيش في الغرب، إن لم نقل إخفاء معالمها تماماً: أعني بها المرأة غير المحجّبة، تلك التي لا يمكن تمييزها عن المرأة الغربية بالعين المجرّدة. نتيجةً لذلك، أمسى النموذج الباقي الوحيد الذي يمكن ملاحظته بصرياً، أي النموذج

«الجليّ» الوحيد الذي يمثّل المرأة العربية، هو نموذج المرأة المحجّبة، بكل ما يحمله هذا الأمر من دلالات سلبية (سواء أكانت متداولة عن حق أم عن باطل).

لكن، فلنكن منصفين: ليس الغرب الجهة الوحيدة التي يجدر بها أن تتحمّل وزر هذه الأفكار الخاطئة. فذنبنا، نحن العرب، في تشويه صورتنا الخاصة، لا يقلّ فداحةً وقبحاً. فلمّا كنا عالقين في هذه الحلقة المفرغة من ردود الفعل الدفاعية/الهجومية، أخذنا نبذل كل ما في وسعنا تقريباً، وما زلنا نفعل ذلك، لنشجّع على هذا القدر من التعصّب تجاهنا، ونروّج لهذه الكليشيهات والصور الخاطئة التي تُحاك في شأن مجتمعاتنا وثقافاتنا.

باختصار: نحن عدوّنا الأشرس. ولنا في ذلك موهبة ومهارة.

* * *

«في التاريخ، المجهول كان غالباً امرأة» (فيرجينيا وولف): هذه مقولةٌ تنطبق من دون شكّ على المرأة العربية. مع ذلك، ليست المرأة العربية «غير المجهولة» خرافةً من الخرافات؛ فالمرأة العربية «الأخرى»، تلك الأنثى غير النمطية، الثائرة، المستقلة، العصرية، صاحبة التفكير الحرّ، اللاتقليدية، المثقفة والمكتفية بذاتها، موجودةٌ أيضاً. فوق ذلك كله، ليست نادرة بقدر ما يتصوّر البعض.

هنا يكمن سرّ الشهادة التي أدلي بها، علماً أنها مجرّد حلقة صغيرة في سلسلة طويلة من الأعمال والدراسات التي سبق أن كُتبت في هذا الموضوع. فشهادتي لا تتوخى الإثبات أنّ الصورة السائدة عن المرأة العربية النموذجية خاطئة (للأسف هي ليست كذلك)، بل الإظهار أنها صورة ناقصة ، وأنه لا بدّ تالياً من استكمالها بصورة المرأة «الأخرى»، بحيث تصبح هذه الأخيرة جزءاً لا يتجزأ من النظرة العامة إلى المرأة العربية لدى الغرب (ولدى العالم العربي نفسه أيضاً).

نعم، المرأة العربية «الأخرى» موجودة على وجه التأكيد. لكنها في حاجة إلى من يلاحظ وجودها هذا. وهي تستحق من يقدّرها ويعترف بأهميّتها.

لذا، أقف أمامكم اليوم لأقصّ عليكم حكايتها، أو على الأقل واحدة من حكاياتها المتعدّدة: حكايتي أنا.

1 امرأة عربية تقرأ الماركي دو ساد

«الكتاب هو المكان الوحيد في العالم الذي يمكن أن يلتقي فيه غريبان، بحميمية كاملة».

مي زيادة
شاعرة وكاتبة لبنانية (1886-1941)

لطالما كنتُ أُعرَف، سواء على سبيل التحبّب أو الاستهجان، بـ «الفتاة الشقية». فمن أكثر الذكريات الراسخة في ذهني صورةُ تلك الطفلة ذات الفضول الذي لا يهدأ، تنتظر، على أحرّ من الجمر، خروج أهلها من المنزل، كي يتسنّى لها جرّ كرسيّ إلى مكتبة أبيها الضخمة، تسلّقه، فالقبض على كلّ ما أُخفيَ بعناية فوق الرفوف العليا. في الواقع، خلال المراحل المبكرة من حياتي، كنت إخال أنّ أمرين اثنين فقط يستحقّان الاستحواذ على وقتي، كلما سنحت لي فرصة البقاء بمفردي: القراءة وممارسة العادة السرية. فكلاهما يتطلّبان مقداراً من العزلة كي يتمكّن المرء من التلذّذ بهما.

من جهتها، يحلو لأمي أن تستعيد ثلاث ذكريات من طفولتي تحمل، في رأيها، دلالات كبيرة على مميّزات شخصيتي: فبعد ساعات قليلة من ولادتي، تروي أمي أنّ عينيَّ كانتا مفتوحتين على اتساعهما، وأنني كنتُ أحملق بنهم في العالم من حولي كأنني ألتهمه بناظريّ. أما الممرّضات، فأكّدنَ لها يومذاك أنهنّ نادراً ما رأينَ رضيعةً بهذه اليقظة وهذا التنبّه إلى العالم الخارجي، لا بل بهذا التعطّش إلى تفاصيله.

هذا أوّلاً. أما ثانياً، فمذ كنت طفلةً في الشهر التاسع من عمري وأنا أرفض، بشدّة، أن آتي عملاً رغماً عني: سواء تعلّق الأمر بارتداء معطفي الأحمر السميك الذي يضيّق عليَّ حركتي، أو شرب

الحليب في وقتٍ لم أكن أشعر فيه بالجوع أو العطش. ويُقال إنني كنت لا أوفّر جهداً، فأخرمش وأعضّ وأبصق إذا دعت الحاجة، لأقاوم كلّ ما يُفرض عليّ[1].

1. حافظت على تقنيات الخرمشة والعض. أما البصق، فقد تخلّيت عنه.

أما ثالثاً، فتحكي أمي قصةً غريبة تعود إلى سنوات طفولتي، قبل أن أخطو حتى خطواتي الأولى. كانت كلّما أرادت الخروج من المنزل لقضاء بعض الحاجيات، ولا تجد من يرعاني في غيابها، تُجلسني في كرسيّ صغير، ثم تضع الكرسيّ فوق طاولة عالية وتتركني هناك، وحدي في المنزل، وهي على يقين أنني لن أتحرّك من مكاني. فقد كانت تعرف أنني أعرف مقدار الأذى الذي سأسبّبه لنفسي فيما لو تحرّكت. بعد ذلك، كانت تعود إلى المنزل لتجدني في الوضعية نفسها التي تركتني فيها، وأنا جالسةٌ بحذر في ذلك الكرسيّ الخشبي ، سليمةً معافاة، أنسج، على الأرجح، الأحلام التي سأشقّ بها طريقي إلى العالم.

إذاً، النهم، التمرّد والوعي: ثلاثة عناصر أساسية ميّزت شخصيتي منذ الصغر، ولازمتني طوال مراحل حياتي - وإنني لآمل أن أتمكّن دوماً من الدفاع عنها من دون أن أبدو كأنني مفرطة الثقة بنفسي، أو منغمسة في امتداح ذاتي. شخصياً، لا أدري إن كان من الأجدى ردّ هذه الذكريات الثلاث إلى ميل الأمّهات لتمجيد أطفالهنّ، أو تصنيفها ضمن خانة الحقيقة الفعلية، ولكن ما أعرفه كلّ المعرفة هو أنّ تلك الرضيعة المتعطّشة، بعينيها الخضراوين الواسعتين؛ تلك الطفلة المتمرّدة التي كانت تقاوم بأسنانها وأظفارها؛ ابنة السنة الواحدة الحادّة الذهن التي كانت تعرف أنّ مصلحتها تقضي بملازمة مكانها لتفادي الكدمات والإصابات؛ هي اليوم المرأة التي اختارت، وتختار، أن تعيش حياةً غير اعتيادية، ضدّ كل قوانين الزمان والمكان.

لكن ليس في مقدور الأرض، حتى وإن كانت أكثرها خصوبةً، أن ترعى شجرةً في تربتها إن لم يكن أحدٌ، في الأصل، قد زرع فيها بذرةً. فماذا كانت «بذرتي» أنا؟ من كان، ولا يزال، معلّمي الأكبر في رحلتي المستمرّة هذه؟

شريك في الجريمة، قدراته لا محدودة، يُدعى الأدب.

* * *

«ما تقرأه حين لا يتعيّن عليك القراءة يحدّد ما ستكون عليه حين لا يعود في إمكانك التفلّت من مصيرك» (أوسكار وايلد). خلال أولى سنوات مراهقتي، لم يكن فتى أحلامي طوم كروز أو بروس سبرنغستين على غرار معظم صديقاتي، ولم أكن أنسج إيهامات عن آل باتشينو أو جوني هاليداي، ولا حتى، صدّق أو لا تصدّق، عن روبرت دينيرو. عوضاً من ذلك، كان خيالي يسافر بي، على جناح عاطفة مشبوبة، نحو مایاکوفسکي وبافيزي وجبران. كنت أحلم بدوستويفسكي وسالنجر وإيلوار. أولئك كانوا الغرباء الذين اشتهيتُهم وسكنوا خيالي، لا نجوم السينما ومشاهير نجوم البوب. بينما كانت زميلاتي متعطّشات للأوهام، كنت أنا متعطّشة للأحلام.

ينبغي لي هنا أن أوضّح أنني، على الرغم مما توحي به خياراتي وأفكاري، نشأتُ في كنف والدَين تقليديين جداً (على الرغم من الأب المثقف والأم المودرن)، حدّ أنه لم يكن مسموحاً لي، من بين ممنوعات كثيرة، الذهاب إلى السينما أيام مراهقتي. زد على ذلك أني ارتدتُ مدرسة للراهبات، كانت محصورةً بالفتيات، طوال أربعة عشر عاماً من عمري. لكنّ هذه التربية التقليدية لم تكن نتيجة

تعصّب ديني أو استخفاف بكوني فتاةً؛ بل نتيجة شعور بالخوف عليَّ «لأنني» كنت فتاة. وكم من مرّة اعترضت، بشدّة، على هذا الخوف، لأنه كان مرادفاً للاستخفاف، وفقاً لمعاييري الخاصة؛ كمن يقول لي: «أنتِ أنثى وبالتالي فأنت حسّاسة وضعيفة وعرضة للخطر... إلخ».

لكنّ تقليدية والديَّ وبيئتي، هذه التي كنتُ أستنكرها وأتمرّد عليها من حيث المبدأ، لم تزعجني فعلياً وعملياً، لأني كنتُ طوال نشأتي منذورةً تماماً، وبسعادة خالصة، إلى عوالم القراءة والكتابة. فعلى رغم هذه التربية التقليدية، وعلى رغم «القيود»، كنت أنمو حرّة جداً من الداخل، ذلك أنّ قراءاتي الأدبية هي التي حرّرتني وأعتقتني. والحرية، كما تعلمتُ لاحقاً، تبدأ في الرأس، ثم تنتقل منه إلى التعبير فالسلوك.

كتلةً من التناقضات كنتُ في طفولتي. هادئة وعاقلة في الظاهر، ومشاغبة في الرأس والباطن: وديعة وحنونة واستقلالية ومغناج، لكني أتحوّل لبوة شرسة إذا ما تطاول أحدهم على حقّي أو جرحني. حساسة جداً وقوية وصلبة في آن واحد. كنت أحتال على أخي في لعبة السكرابل لأني لا أحتمل الخسارة (تعلمتُ احتمالها في ما بعد). نارية وشغوفة وتنافسية وعنيدة ومتمردة على الممنوعات وغير صبورة على الإطلاق (ولمّا أزل!). «أكبر» من عمري كنت، لا ألعب بالدمى (كنتُ أزدري ألعاب البنات، خصوصاً دمية باربي وأكسسواراتها)، بل أسرق من مكتبة والدي الضخمة كتباً لا تلائم سنّي وألتهمها خلسةً.

أحببتُ القراءة لأسباب متنوّعة: كنت أقرأ لأتنفّس؛ أقرأ لأعيش (حياتي كما حياة الآخرين)؛ أقرأ لأسافر نحو البعيد؛ لأهرب من واقع مرير؛ لأكبت دويّ انفجارات الحرب اللبنانية؛ لأتجاهل صراخ والديَّ وخلافاتهما ومعاناتهما اليومية؛ لأضرم نار نهمي وتعطّشي؛ لتتراكم فيَّ طبقاتٌ من القوة؛ أقرأ لأناجي روحي؛ لأسدّد إليها صفعة؛ أقرأ لأتعلّم؛ لأنسى؛ لأتذكّر؛ أقرأ لأفهم؛ لأنسج الأمل؛ لأضع الخطط؛ أقرأ لأؤمن؛ لأحبّ؛ لأحترف الرغبة والتوق والشهوة...

وكنت أقرأ، على وجه الخصوص، لأتمكّن من الإيفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي، بأن تكون حياتي، يوماً ما، مختلفة عما كانت عليه آنذاك. هو وعدٌ بذلتُ، وما زلت أبذل، كل ما في وسعي للإيفاء به، لا لشيء إلا كرمى لجمانة الصغيرة، تلك الفتاة الهشّة العالقة في شرك، والتي كانت، بين انفجارات مدافع الميليشيات في الخارج، وصراخ أهلها في الداخل، ترتحل بعيداً على متن أحلامها، من قلب أحد ملاجئ بيروت القذرة...

* * *

لا أذكر أول كتابٍ قرأته. غالباً ما أطرح على أبي هذا السؤال، لأنه كان هو من يمدّني بالكتب، لكنه هو الآخر لا يتذكّر. لكن أتذكّرني جيداً طفلةً صغيرة، ربما في التاسعة أو العاشرة من عمرها، تجلس إلى طاولة المطبخ في البيت الصغير، تقرأ وتقرأ ثم تكتب بلا كلل قصصاً تشبه تلك التي كانت تقرأها (غالباً على ضوء الشموع بسبب انقطاع التيار الكهربائي باستمرار خلال أيام الحرب). كان لقبي في البيت «الباش كاتب» لفرط ما كنتُ أكتب وأكتب حتى تتورّم إصبعي الوسطى (قبل استتباب عهد الكمبيوتر).

عندما اكتشفتُ (والأصح أن أقول عندما اكتشفني) الماركي دو ساد، كنتُ في الثانية عشرة من عمري. كانت مكتبة والدي الشهية مشرّعة أمامي على غارب ملذاتها طوال نهارات العطلة الصيفية، أنهل منها كيفما اتفق، ما يناسبني وما لا يناسبني على السواء، بلا حواجز ولا معوقات، بل بحرية

مطلقة، سببها الرئيسي غيابه عن البيت طوال اليوم، وليبراليته في مجال المطالعة، وربما أيضاً ثقته - المبالغ فيها - بأني لن أقرب سوى ما يتلاءم، نظرياً، مع سنّي. كانت تقاسيم وجهي البريئة، المتناقضة مع شياطين رأسي، أفضل «تغطية» لما يعتمل في ذلك الرأس الصغير من جنون وهلوسة وحمّى وفلتان... والدي المرهف الذهن، المتّقد الذكاء، هل كان مخدوعاً حقاً أم كان في حاجة إلى تصنّع هذا الانخداع، شأنه شأن أيّ والدٍ تقليدي؟ صدقاً، لا أدري. ولكن ما زالت هذه التقاسيم «المسالِمة» إلى اليوم، في الحقيقة، تخدع كثيرين في شأن طبيعتي وطباعي وأفكاري، وتستدرج أولئك الذين يبنون أحكامهم على إيحاءات المظهر والسطح إلى الوقوع في «الفخ»: فخّي أنا.

وهذا لحسن.

* * *

قراءة كتاب الماركي دو ساد في ذلك اليوم غيّرتني في شكل حاسم. بل إذا كنتُ لأؤرّخ لمراحل حياتي الأساسية، لشكّل ذلك النهار، من دون شك، منعطفاً حاسماً في تاريخ تكويني. فكّر في الأمر كأنه تمرين بسيط في الرياضيات: قطاران، «ألف» و«باء»، كلٌّ منهما موجود في قارة مختلفة وقرن مختلف، يجريان أحدهما في اتجاه الآخر، سالكَين الخط الحديدي نفسه؛ لا مفرّ إذاً من أن يلتقي القطاران عند نقطة معيّنة من الزمان والمكان. الماركي دو ساد كان ذاك القطار «ألف»، وأنا كنت، بكل تأكيد، القطار «باء»!

في تلك الصبيحة الحارة، كنت قد أنهيتُ للتو كتاب «أوهام ضائعة» لبلزاك، وبدأت أفتش عن غنيمة جديدة. وقفتُ كعادتي أمام المكتبة المكتنزة والعالية وراح نظري يركض بين العناوين. سمعتُ المجلّد الصغير المصفرّ في الرف السادس يناديني. عنوانه، «جوستين أو مصائب الفضيلة». أثار فضولي. أخذتُه وفتحتُ الصفحة الأولى. الطبعة قديمة جداً، تعود إلى عام 1955. الناشر هو جان جاك بوفير (طبعاً، ومَن سواه كان بهذه الجرأة لنشر كتاب كهذا إبّان تلك الحقبة في فرنسا؟!).

يومذاك، لم أقرأ المقدّمة الرائعة بقلم جورج باتاي التي عدتُ إليها بعد سنوات، بل انتقلتُ فوراً إلى الرواية، وقرأتُها، تلك الرواية الفظيعة الرائعة، دفعةً واحدة، بمزيج من الذهول والذعر، من الافتتان المغنطيسي والهلع المخدِّر. كمن ترتعد خوفاً لكنها تتلذذ بوقوعها في قبضة خوفها. كمن لا تستطيع أن تمتنع عن مشاهدة فيلم رعب أو عن الركوب في «لعبة الجبال الروسية»، على رغم الإرهاب الذي يمارسه الفعلان عليها. أدرينالين . كان مفعول تلك القراءة فوران الأدرينالين في جهازي العصبي. ولم أنفك أبحث عن ذلك الفوران في كل قراءاتي التالية، حتى صار هو، تقريباً، المعيار الأسمى لنجاح كتاب ما أو فشله، وفقاً لامتحاني الشخصي. وإذا كان لي أن أذهب أبعد من ذلك، لقلتُ إنّ هذا الأدرينالين صار أيضاً المعيار المطلق في حياتي الخاصة وعلاقاتي مع الجنس الآخر.

«في مقدور الكتب أن تكون خطيرةً جداً. لذا يجب تذييل أفضلها بتحذير: هذا الكتاب كفيلٌ تغيير حياتك» (هيلين إكسلي). لا أعرف اليوم كيف يمكن فتاة في الثانية عشرة من العمر أن تقرأ كتاباً خطيراً كـ «جوستين» وتخرج منه «سليمة». لا أعرف كيف يمكن هذه الفتاة أن تنتقل مباشرة من رواية لبلزاك إلى رواية لساد من دون أن تقع في الهوة المروّعة بينهما. لا أعرف، بتعبير أكثر بساطة، كيف «نفدتُ بريشي» من تلك المواجهة الفجة والخطيرة (هل «نفدتُ بريشي» حقاً؟)، لكنني أعرف أنّ هذه المواجهة شكّلت ضربة نرد رابحة في حياتي.

هكذا، كتاباً تلو كتاب، قراءة تلو قراءة، ومواجهة تلو مواجهة، أطلق الماركي دو ساد سراح رأسي. أمسكني بحزم ونظر في عينيَّ وقال لي: «خيالكِ مملكتكِ. كل شيء مسموح في الرأس. كل شيء ممكن في الكتابة. شرّعي النوافذ ولا تخشي أن تنتهكي وتهلوسي».

فعلاً، أدين للماركي دو ساد بأنه أطلق يومذاك سراح رأسي. ومثله فعل في ما بعد كتّاب آخرون لا يقلون عنه جمالاً وإغناءً و«انتهاكاً». باختصار: أصبحتُ فاسدة.

وإلى غير رجعة.

* * *

لا ريب في أنّ قراءة مؤلَّفات مصنّفة «للراشدين فقط»، مثل جوستين ولوليتا وسِكسوس ، عندما كنت في الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمري، عادت عليّ بكثير من الفوائد. يجدر بي هنا الإشارة إلى أنني قرأتُها كلها باللغة الفرنسية، لا العربية. فمع أنني كنت أحبّ العربية وقد أعجبني العديد من المؤلّفين الذين كتبوا بهذه اللغة (خصوصاً جبران خليل جبران وشعراء وروائيين معاصرين كثراً)، إلا أنّ معظم قراءاتي خلال سنوات مراهقتي كانت بالفرنسية: إما لكتّاب فرنسيين، وإما لمؤلّفين عالميين تُرجمت أعمالهم إلى اللغة الفرنسية. في كل حال، كان من المحال طبعاً العثور على نسخة لرواية «جوستين» باللغة العربية، أو السماع عن مفكّرين عرب حملوا هذا العمل على محمل الجد، سواء آنذاك أو في أيامنا هذه. أقول ذلك، مع الإشارة إلى أنّ الثقافة العربية قدّمت إلينا قبل مئات من السنين ـ وهنا المفارقة ـ أعمالاً تفوق، بأشواط، كل ما أنتجه الغرب (أو ربما ما ينتجه اليوم) من إيروتيكية وقدرة على الصدم. إثباتاً لكلامي، أورد في ما يأتي مقتطفاً من كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» الذي كتبه الشيخ النفزاوي في القرن الخامس عشر:

«إذا أردت الجماع فألقِ المرأة على الأرض وهزّها إلى صدرك مقبّلاً لفمها ورقبتها مصاً وعضاً وبوساً في الصدر والنهود والأعكان والأخصار وأنت تقبّلها يميناً وشمالاً إلى أن تلين بين يديك وتنحل فإذا رأيتها على تلك الحالة فأولج فيها أيرك فإذا فعلت ذلك تأتي شهوتكما جميعاً. النساء لا يشبه بعضهن بعضاً في الفروج والنكاح والمحبة والبغض فالمرأة القريبة الرحم تحب من الأيور القصير الغليظ الذي يسده سداً من غير تبلغ وإذا كان غليظاً كاملاً لا تحبه، وأما البعيدة الرحم الغارقة الفرج فلا تحب من الأيور إلا الغليظ الكامل الذي يملأه. وإذا كان قصيراً رقيقاً لا تحبه أبداً ولا يعجبها في نكاح. المرأة القصيرة تحب النكاح وتعشق الأير الكبير الغليظ أكثر من الطويلة على كل حال، ولا يوافقها من الأيور إلا الغليظ ففيه يطيب عيشها وفراشها».

ترى، كيف انتقلنا من تلك الدرجة الكبيرة من التحرّر في الأمس، ومن الحديث عن الجنس بهذه العفوية والفطرية، إلى حاضرنا المكبوت اليوم؟ متى بدأنا نتقهقر وننحدر نزولاً من فوق تلة المحظورات والتابوهات؟ ما هذا إلا غيضٌ من فيض الأسئلة التي لا تنفكّ تؤرّقني وتستحوذ عليَّ.

هذا في ما يخصّ «جوستين». فماذا عن كتاب مثل «لوليتا»؟ في عالمنا العربي، حيث التركيز طاغٍ على عفّة البنات، وعلى سلوك الفتيات وأخلاقياتهنّ التي يجدر ألا تشوبها أي شبهة، يعتبر هذا الكتاب، بلا شكّ، عملاً فاضحاً. لكن، في الوقت نفسه، لا تعتبر «البيدوفيليا المؤسساتية» التي يمارسها الإسلام شائنة على الإطلاق، لا بل من الطبيعي جداً أن يتزوّج رجالٌ بفتيات في الرابعة عشرة من أعمارهنّ. في هذا الإطار، يقدّر المركز الدولي للأبحاث حول النساء، اليوم، عدد الطفلات المتزوّجات في العالم بواحد وخمسين مليون عروس، يكدن يكنّ كلهنّ من الدول الإسلامية. ثم كيف

ننسى هنا الكلمات المروّعة التي جاءت على لسان آية الله الخميني، أحد أشهر الفقهاء الإسلاميين في القرن العشرين، في كتابه «تحرير الوسيلة»:

«لا يجوز وطء الزوجة قبل إكمال تسع سنين، دواماً كان النكاح أو منقطعاً، وأما سائر الاستمتاعات كاللمس بشهوة والضم والتفخيذ فلا بأس بها حتى في الرضيعة. ولو وطأها قبل التسع ولم يفضها لم يترتب عليه شيء (...)، وإن أفضاها (...) يجب عليه نفقتها ما دامت حيّة».

حدِّث ولا حرج عن الفسوق والفساد!

بسبب كل تلك المعايير المزدوجة المنافية للمنطق، شعرتُ أنّ الحظّ قد ابتسم لي عندما منحني ملكة اللغة الفرنسية كنافذة إلى «الممنوع». في الحقيقة، ليس في وسعي أن أتخيّل كم كنت لأكون فقيرةً ومحرومةً اليوم لولا الهبات والامتيازات الثقافية التي منحتني إياها اللغة الفرنسية (على هذا المستوى، وهذا المستوى وحده، أجرؤ على القول إنني «محظوظة» لأنني لبنانية الهوية، لكون لبنان دولة عربية فرنكوفونية). هكذا، من آراغون، ستاندال، فلوبير، هوغو، سارتر، كامو، دو بوفوار إلى سيلين، دو موسيه، صاند، كوليت، جينيه... من دون أن ننسى دوستويفسكي، غوغول، ميلر، نابوكوف، كافكا، بيتس، ماركيز، بيراندیلو، بو، ريلكه، بيسوا وبافيزي... رحت ألتهم العديد من أعمال هؤلاء الكتّاب العظماء باللغة الفرنسية.

* * *

أما التأثير الإيجابي الثاني الذي خلّفته كل هذه القراءات فيَّ، بعد إطلاق سراح عقلي، فكان إنقاذي من بحر القصص الرومنطيقية، العادية جداً، التي حفلت بها الكتب الوردية، التافهة، المسالمة ـ تلك التي كانت زميلاتي يتبادلنها سراً، وخدودهنّ تحمرّ خجلاً، لمجرّد فكرة أنهنّ يرتكبن «فعلاً مشيناً». ففيما كنّ يحبسن أنفاسهنّ لدى قراءة باربرة كارتلاند وقصص الحبّ الملتهبة التي تبلغ أوجها، في أفضل الأحوال، بـ «قبلة شغوفة» أو «عناق حار»، كنت أنا منغمسة في ذلك العالم المستحيل من طقوس العربدة المتواصلة، والكهنة الذين يضاجعون العذارى من المؤخرة، والفتيات اليانعات اللواتي يمارسنَ إغراءهنّ على كهول في الخمسين، وهكذا دواليك. من هنا، وصلت طفولتي إلى نهايتها في وقت مبكر جداً، على ما أعتقد، إذا كنا نعني بالطفولة سنّ البراءة الجنسية.

لم يكن من الغريب إذ ذاك أن أنظر إلى صديقاتي بطريقة فوقية إلى حدٍّ ما. في المقابل، درجنَ هنّ على تسميتي بـ «الفتاة الخجولة». فبينما كانت كلّ واحدة فيهنّ تنطلق بوصف الرجل الذي منحها ابتسامةً في طريقها إلى المدرسة، أو تروي كيف أقدم قريبها، ذو الوجه المليء بالبثور، على الإمساك بيدها من تحت الطاولة، خلال غداء عيد الفصح مع العائلة، كنت أنا ألتزم الصمت بكل بساطة. في الواقع، لم يكن يهمّني الفتيان «الحقيقيون». (مع العلم أنني عوّضت، بحماسة متّقدة، عن هذه اللامبالاة في مرحلة لاحقة من حياتي).

في ظلّ هذه الأجواء، بدا لي الواقع أقل إثارةً وتشويقاً من ذاك الذي كنت أستغرق فيه بين صفحات كتبي الأثيرة: بدا تافهاً جداً، سخيفاً، وبكل صراحة، لا يستحقّ ذرةً من وقتي. أضف إلى ذلك كله أنني كنت أحب وحدتي ولم أمانع العزلة والانفراد بنفسي. في خضمّ كل تلك القراءات الرائعة التي نهلتُ منها، وحلمتُ بها، وكتبتُ عنها، كنت أستمتع كل الاستمتاع برفقتي الخاصة، مقتنعة تماماً بأنّ وجود ولو شخص واحد فقط قادر على أن يخنق عليَّ فسحتي تلك. أما صديقاتي المراهقات، فقد تعاملن مع

نضجي المتكبّر وكأنه خجل ليس إلا. وبالتالي، فقد أكسبني هذا الأمر صيت الفتاة الخجولة، البريئة؛ وهو، في الواقع، صيت عاد عليَّ بالفائدة على مقاعد الدراسة.

أما التأثير البنّاء الثالث الذي خلّفته عليّ قراءتي لهذه الكتب الصادمة في تلك السنّ المبكرة - أو على الأقل كان بنّاءً بالنسبة إليّ -، فكان تغذيتها لاستيهاماتي وفضولي حول الإثارة والشهوة الجنسية، ناهيك بأنها شذّبت فيَّ خيالات جنسية جامحة وليبيدو غير تقليدية.

جراء ذلك، صار عندي الاستكشاف فناً، والإمكانات فرصاً لا تعدّ ولا تحصى، والتابوهات حواجز لا بدّ من تحطيمها.

وهذا، بدوره، عاد عليَّ بفوائد كثيرة في حياتي.

* * *

«الاستثناء يوصف دائماً بأنه «شاذ». شيءٌ فينا لا يريد أن يصدّقه لأنه ينذر بالخطر» (يسرى المقدّم). ما من شكّ في أنّ الكتب «الشاذة» مثل «جوستين» قد غيّرتني. وهي غيّرتني، من غير ريب، نحو الأفضل. لو أنني رزقتُ (ويمكنني أن أُرزَق بعد) بابنة، لكنت فرشتُ أمامها، على وجه التأكيد، كل تلك المجلّدات المدهشة والمشرّعة للبصيرة، وقدّمتها إليها هديةً عند حلول عيد ميلادها الثاني عشر (للأسف ولداي الرائعان يهربان من الكتب كما لو أنها طاعون فتّاك). هذه هي النصيحة الوحيدة التي أسمح لنفسي بتقديمها اليوم إلى النساء اللواتي يطلبنَ مشورتي، وهنّ يحسبن أنّ حماستي المتّقدة إنما هي حكمةٌ يفيض عليهنّ بها معلّم روحي؛ أجيبهنّ: الكتب. لا تخشينَ الكتب، حتى أكثرها انشقاقاً عن المألوف، حتى تلك التي تبدو «خليعة» أو «لاأخلاقية» في الظاهر. فالثقافة رهان أكيد في الحياة، سواء أكانت ذات نوعية عالية أم متدنية، قديمة أم عصرية، تنتمي إلى ثقافة النخبة أم الثقافة الشعبية. وأنا مقتنعة كل الاقتناع بأنّ القراءة هي إحدى أهم الأدوات التحررية التي يمكن أي شخص، وأي امرأة عربية معاصرة على وجه التحديد، أن يستغلها. لا أقول إنها الأداة الوحيدة ، لا سيما اليوم، في ظل توافر كل تلك الوسائل البديلة للمعرفة والتعلّم والنمو - أعني الوسائل البصرية، التفاعلية والسريعة. لكن كيف لقوّة الأدب ألاّ تقنعني وهو الذي كان محرّري الأول ومُطلق يديّ ومخيلتي؟ فضلاً عن ذلك، أنا على ثقة بأنني لستُ استثناءً، فحالي حال نساء عربيات كثيرات غيري: بالفعل، كم من امرأة عربية تدين للقراءة بالخطوات الأولى التي سلكتها الأنثى غير التقليدية الكامنة فيها، تلك التي ما لبثت أن أصبحتها لاحقاً.

لكن، بعد ذلك، اندلعت الحرب. وتلك حكايةٌ أخرى.

2 امرأة عربية لا تنتمي إلى أي مكان

«إن غياب رؤية واضحة للمستقبل لهو إحدى المعضلات الأشد مأسوية التي يواجهها العرب اليوم».

فاطمة المرنيسي
كاتبة وعالمة اجتماع مغربية (1941 -)

لكلّ إنسان رهابه. رهابي أنا من نوع خاص. ليس حيواناً مقززاً، ولا مكاناً شاهقاً. ليس نشاطاً أخاف ممارسته، ولا ظرفاً أخشى أن أجد نفسي فيه. إنه صوت.

رهابي، صدِّق أو لا تصدِّق، هو صوت: صوت صفير القذائف المرعب. كلما سمعته، اقشعرّ بدني وتسارعت دقات قلبي. كلما سمعته، إلى اليوم، أروح أحدّق في الأفق بفزع كي أرى مصدر «القذيفة». القذيفة. نعم، كي أرصد، خصوصاً، ما إذا كانت ستقع على رأسي ورأس أحبّتي أم لا. إنه صوت يرمز عندي إلى انتظار الموت. إلى انعدام الغد.

وذاك الصوت المروّع - مهما قد يبدو إعلاني هذا مجحفاً - يلخّص بيروت بالنسبة إليَّ.

* * *

لا يسعني أن أذكر كم من المرات، خلال نشأتي في بيروت، فكّرت: «أكره هذه الأرض». كم من المرات قلت: «اللعنة على هذه البلاد. اللعنة على هذه الهوية المجرمة، على هذه الجغرافيا القاتلة، على هذه الطوائف المقيتة والانتماءات العمياء التي تؤلّب الإنسان ضد أخيه بسبب إله ليس واثقاً من وجوده».

لا يسعني أن أذكر كم من المرات تمنّيت، في لحظات اليأس والبؤس تلك، أن أمتلك قلباً فارغاً لا يزن شيئاً، مجرّداً من أي ألم أو خيبة أو ندم أو غضب أو خوف أو شك أو حزن أو حقد...

كثر هم الذين يحبّون طفولتهم ويستعيدونها بحنين. أنا أحتقر طفولتي، وبودّي لو أنساها برمّتها، باستثناء القراءات الملهمة التي رافقتني خلال هذه المرحلة وجعلتها أخفّ وطأةً. لن أحتفظ ولو بتفصيل واحد عنها. في طبيعة الحال، لا يمكنني أن ألقي باللوم كله على الحرب اللبنانية فقط: فلم تكن هذه الحرب إلا أحد العناصر المدمّرة الكثيرة التي أحاطت بي، آنذاك، من كلّ جانب. في الوقت نفسه، لن أقع في فخّ الإشفاق على نفسي أو أنجرّ إلى الرثاء لحالي. فهذا ليس من شيمي. زد على ذلك أنّ أياً من النزاعات التي عشتها أو كنت شاهدة عليها لم تنجح في تدميري أو القضاء على عزيمتي؛ بل على العكس: نحن ندين للحروب التي تمرّ علينا لكونها أحالت العديد منا، نحن الناجين، محاربين أقوياء، شهيّتهم مفتوحة إلى الحياة، والإنجازات، والسعادة، والمعرفة والتطوّر. لكن لا أملك، في أغلب الأحيان، سوى أن أتساءل: كم كنا لنغدو نحن العرب (من لبنانيين وفلسطينيين وعراقيين إلخ...) مختلفين اليوم، لولا جميع هذه الحروب العبثية والمشؤومة التي عشناها، ولما نزل نعيشها؟

يقال إنّ الحرب شأن الرجال. أفترض إذاً أن فقدان الأحبّة شأن النساء. كم كانت المرأة العربية لتكون أكثر سلاماً وتصالحاً مع ذاتها اليوم، وأشد تركيزاً على معاركها الخاصة، لو لم تُجبر في معظم البلدان على أداء دور الأرملة أو الثكلى؟ كم كنت أنا لأكون أقل إدماناً للمجازفة، لو لم أعش ما عشته في سنوات الطفولة والمراهقة؟ لو لم أرَ، مثلاً، رِجل جارنا مسلوخة عن جسمه تحاول اللحاق به، أو رجال الميليشيا يعلّقون خصومهم بمؤخرات سياراتهم ويجرجرونهم كالكلاب في شوارع المدينة؟

«المعارك مصيري. ويجب أن أتعلّم كيف أتقبّلها». هذا ما كنت أقوله بصوت عال وأنا أقف أمام المرآة، وكأنني أردّد مانترا. كان كل أملي أن أهدّئ من روعي، كلّما وقعت عيناي على مشهد كهذا، أو سمعتُ دويّ انفجار عنيف أو خبراً عن اغتيال مروّع. في نهاية المطاف، وصل بي الأمر، في خطوة يمكن وصفها بالمازوشية، حدّ الاستمتاع بالوقع البشع الذي كان هذا التصريح يخلّفه على أذنيّ وجلدي ورئتيّ ومعدتي وحوضي، وغير ذلك من أطرافي. بتّ، أخيراً، معتادةً سمفونية القتال هذه...

أعرف كم هو كريهٌ التصريح عن قولٍ كهذا، أو الشعور به أو مجرّد التفكير فيه. ولكنها، على رغم ذلك، الحقيقة كل الحقيقة. غالباً ما أقول لأصدقائي الأجانب: «لقد تدربتُ على الحرب»، محاولةً أن أتعاطى مع مصدر ألمي الشديد بسخرية وتهكّم. بعد كل سنوات التأهيل تلك، اعتدتُ سمفونية القتال، كما اعتدت الخوف والموت اللذين يرافقانها.

اعتدتُ كل شيء، ما عدا صوت الصفير.

أصابتي صعقة الحرب الأهلية القاتلة في لبنان وأنا بعد طفلةٌ في الرابعة ونيّف من عمرها. اندلعت الحرب في العام 1975، في 13 نيسان 1975 على وجه التحديد. يسمّون ذلك النهار بـ «الأحد الأسود». يومذاك، سمع أهلي طلقات الرصاص ودويّ الانفجارات، فحسبوا أنها مجرّد مفرقعات نارية. وعلّقت أمي: «لعلّه حفل زفاف لأحد الأثرياء»، ثم واصلت إعداد وجبة الغداء وكأنّ شيئاً لم يكن. لكنه لم يكن زفاف أحد الأثرياء. كان حرباً بكل ما للكلمة من معنى، حرباً استنزفت أجمل سنوات طفولتي ومراهقتي... حرباً فتكت بالأشخاص، دمّرت بيوتاً وأسراً كاملة، وباتت مصنعاً لإنتاج الأرامل والثكالى واليتامى... حرباً جعلت الوقت يمرّ ثقيلاً، بطيئاً، لكأننا في مستنقع من الوحل... حرباً أحالتني إنسانة عفنة من الداخل، تتقاذفها مشاعر من انعدام الثقة، وتشتعل فيها جروح نتنة حاولتُ، وما زلت أحاول، أن أخفيها عن الأنظار (أو أعالجها).

هذه الجروح هي الثمن الذي يدفعه كل من وُلد، مثلي، تحت سماء بيروت.

* * *

«على المرء أن يختار انتماءه ويجدّد خياره هذا باستمرار» (جون دوناهيو). ينبغي لي أن أوضّح هنا أنه على رغم ولادتي ونشأتي في بيروت، ومع أنني لم أغادرها يوماً للعيش في الخارج، إلا أنني لا أشعر بأي انتماء إليها كمدينة ومكان. ربما لأنني لم أرَ منها، منذ طفولتي وحتى شبابي على امتداد 15 عاماً، وأكاد أقول حتى اليوم، سوى وجهها البشع، الشرير، القاسي: أي وجه الحرب، والدمار، والموت، والخوف، والقلق، والركض إلى الملاجئ. لم ألعب في شوارعها، لم أتمرّغ في ترابها، لم أتنزه على كورنيشها، ولم أعش غليانها.

على سبيل المثال، لم أزر بيروت «الغربية» للمرة الأولى إلا عندما أصبحتُ في السابعة عشرة من عمري. أما قبل ذلك، فكانت مجرّد صورة على بطاقة بريدية، أو مكاناً مبهماً يحكي عنه والداي بين الفينة والأخرى، عندما تهدهدهما موجة من الحنين. فيفيضان بالحديث عن سينما الكابيتول، وسوق الطويلة، وغيرهما من الأماكن الغامضة ذات الأسماء التي لم تكن تعني لي شيئاً.

بيروتي ليست بيروتهما. بين الاثنتين هوّة، وقطيعة واضحة. لا جسور تربط بينهما ولا ممرّات. لكأنني من دولة أخرى، لها عاصمة مختلفة تماماً...

ليست بيروت إذاً شريكةً، ولا صديقة، ولا حتى أماً، وليس من حب قوي يجمعنا، ولا تواطؤ. لم تلدني، ولا أنا تبنّيتها. وفي الحقيقة لا يزعجني هذا الانفصال، أو هذه البرودة في العلاقة، ولا أشعر بنقص في حياتي بسببهما، لأنني في كل حال بلا جذور. يحلو لي أن أفكر أنّ قدميَّ منغرزتان في الغيوم. أرضي الحقيقية هي مجموعة أماكن أعشقها وأجد فيها نفسي، موزّعة هي في جميع أنحاء العالم. أزورها ولا أقيم فيها، أي إنها تظل تفاجئني وأظل عاجزة عن امتلاكها. وهذا هو تصوري الشخصي للتعلق والانتماء.

عندما أنظر إلى بيروت اليوم، أرى امرأة ضائعة الهوية، مسجونةً في دوامة من عمليات التجميل، تبالغ في النظر إلى المرآة بدلاً من النظر في روحها، محاولةً استرداد بعض سحرها وألقها وفتنتها الشكلية الماضية. أين ينبض قلبها؟ لا أدري. ما هو إيقاع دقّاته؟ لا أدري كذلك. لعلّي بتّ أعرفها اليوم أكثر من ذي قبل، ولكن يجدر بي القول إنه لم تزل فيها أحياءٌ لم أزرها، وأحياءٌ أخرى أشعر بالارتباك والحيرة عندما أدخل فيها وأجول في متاهاتها. أصدقاء كثر، ممّن عايشوا فضاءها ما قبل الحرب، يقولون إنها باتت الآن زائفة وكاذبة في معظمها. من جهتي لا أستطيع المقارنة، لكنني أشعر بأنّ بيروت تلملم نفسها وأنها لم تنجح بعد في العودة إلى طبيعتها، إلى حقيقتها الفعلية. وأجدني أتساءل دوماً: هل لبيروت حقيقة فعلاً؟ أليست بيروت حلمنا ببيروت وأوهامنا عنها واختراع رغباتنا واستيهاماتنا لها؟

لا أشعر بعاطفة تجاه بيروت، ولكنْ في قلبي نوع من العطف. ليس عندي حنان أو حنين، ولكنْ عندي شيء من الرقة حيالها. بيروت لا تجذبني، ولم تنجح في كسب ودّي، وأحدس أنها هي أيضاً لا تحبّني. ولكن إذا كان عليَّ أن أختار وجهاً لها أحبّه، أو على الأصح أحتمله أكثر من غيره، فلا بدّ لي من اختيار وجهها الليلي. يعجبني غموضها في العتمة، وصخبها، واستسلامها لحريتها وشهواتها ونزواتها. بيروت في النهار مفرطة التزيين، أما ليلاً فتغسل وجهها بالماء والصابون: لا ترتدي المساحيق ولا تضع شعراً مستعاراً. بيروت في النهار تاجرة في الدرجة الأولى، أما ليلاً فتصبح امرأة هشّة، وتصير أكثر صدقاً وشفافية واقتراباً من جوهرها ومعناها.

«الصدمة التي سبّبتها لي الحرب دفعتني إلى استيعاب بيروت، واستكشافها، والكتابة عنها. لكن لعل أكثر ما أقلقني قبل أن أبدأ بالكتابة هو ذلك السؤال: كيف أكتب عن مدينة لا تشبه تلك التي أولدتها قصص آبائنا وأجدادنا؟ عن أيّ مدينة أكتب، أنا التي شهدتُ على تكسّر حلمها بأن تكون مدينة عصرية على مختلف المستويات؟» (علوية صبح). بخلاف الكثير من الكتّاب اللبنانيين، لم أشعر قط بحافز يدفعني إلى تأليف كتاب عن بيروت، وهي بدورها لم تلهمني يوماً بترجمة أفكاري على الورق... في بعض الأحيان، يسألني قرّائي: «لِمَ لا تكتبين عن الحرب في قصائدك؟».

فتكون إجابتي الأولى: «لست مستعدة بعد».

وإجابتي الثانية: «أخجل من استغلال الحرب لزيادة نسبة الإقبال على كتاباتي».

أما إجابتي الثالثة (وأفضلها على الإطلاق)، فهي: «لا تبحثوا عن الخنجر. الندوب تحكي القصص كلها».

منذ بداياتي المبكرة مع الكتابة، لطالما شعرتُ أن كل ما أفعل، كل ما أقول، كل ما أكتب، أفعله وأقوله وأكتبه «رغماً عن أنف بيروت». بيروت ملكة التناقضات. الشهيدة والعاهرة. المحجبة والمتحررة. الملتبسة والواضحة. الغادرة والوفية. التاجرة والفنانة. الشرقية والغربية. المغوية والناسكة...

المدينة التي يشبه العيش فيها أداء دور في مسلسل تلفزيوني رديء...

حيث لا تملك سوى أن تشعر، كلما ذهبت إلى النوم، أنك تنام مع العدو. وأنّ ذلك العدو هو... أنت؛

حيث حظوظك في تحصيل لقمة عيش كريمة أوفر كساقٍ، منك ككاتب؛

حيث أقصى ما يمكنك أن تطمح إليه (لا أن تعتمد عليه) ككاتب هو أن يكون جمهور قرائك مؤلّفاً من زملائك الكتّاب، علماً أنهم يتوقعون منك طبعاً «ردّ الجميل» عندما ينشرون بدورهم كتاباً جديداً؛

حيث الفوضى تعتبر نظاماً، ومفهوم الشرف لا يزال محصوراً ما بين فخذي المرأة؛

حيث يتخاصم أهل السياسة على السلطة مثلما يتخاصم الدجاج على فتات خبز، بينما قلة منهم تولي اهتماماً حقيقياً وصادقاً لحاجتنا إلى مجتمع مدني واعٍ وراشد؛

حيث السلطات الدينية، على أنواعها ومختلف مشاربها، لا تزال الآمرة الناهية في شؤون الناس الخاصة والعامة؛

حيث لا يحق للبنانية متزوجة بأجنبي، من ضمن عدد كبير من الممارسات التمييزية الأخرى، أن تمنح أولادها جنسيتها؛ ولكن يحق لها طلب قرض مصرفي خاص لتصغير أنفها ونفخ نهديها بالسيليكون؛

حيث يجري التعامل مع المثليين كما لو أنهم يحملون وباءً مخيفاً؛

حيث في وسع الرقابة أن تعتدي بمقصّها على الأفلام في غمضة عين، إذا ما تناولت مثلث برمودا الشهير: الدين، السلطة والجنس؛

حيث تُدمَّر بيوت بيروت القديمة بلا وجل، وحيث لا متحف مشرّفاً للفن المعاصر بعد؛

حيث من الطبيعي، بالنسبة إلى معظم النساء الشابات، أن يتنقّلنَ بين متاجر الأزياء أو يبدّدنَ نهاراً بأكمله من أجل التمدّد تحت أشعة الشمس، عوضاً من تخصيص ساعة واحدة فقط لقراءة صفحات من كتابٍ ممتع (مع العلم بأنّ في إمكانهنّ القيام بالأمرين معاً بكلّ سهولة)؛

حيث لا يزال من المتوقّع أن تكون الفتيات الوافدات من «عائلات محافظة» عذراوات ليلة زفافهنّ؛

حيث الرجال الشباب لا يزالون يبحثون عن فتيات عذراوات من «عائلات محافظة» كي يتزوّجوهنّ؛

حيث تنقرض مكتبات كثيرة، ويناضل الناشرون من أجل البقاء؛

حيث المدرسة التي كان يرتادها ابني البكر لقّنته أنّ الشعر سلسلة من الجُمل الرومنطيقية المقفّاة؛

حيث ابني الصغير مهتمّ بالتعرف إلى آكون، فيفتي سنت ورقصة التيكتونيك، أكثر بكثير من اهتمامه بشوبان، بيكاسو وفيكتور هوغو، لأنّ هؤلاء قد قُدِّموا إليه بالطريقة الأكثر إضجاراً على الإطلاق...

* * *

في استطاعتي أن أتكلّم إلى ما لا نهاية عن أخطائنا وعيوبنا ونواقصنا. أعرف أنّ هذا الأمر قد يزرع الدهشة في نفوس الكثير من الأشخاص، لا سيما أنّ بيروت معروفة بكونها مدينة عربية «مختلفة»؛ مدينة أكثر انفتاحاً، أكثر عالمية وإيماناً بحرية التعبير. وهذا صحيح. فبيروت مختلفة فعلاً. لكن إذا بالغنا في امتداح خصائصها ضمن المنطقة، فسنجازف بالوقوع في فخ الكليشيهات: أعني بذلك التساهل مع النفس حدّ الادعاء أنّ كل شيء يسير على ما يرام، وفي ما يصبّ في مصلحة جميع الأطراف. لكنّ الواقع ليس على هذه الحال؛ بل على العكس: كثيرٌ من الأشياء لا تسير على ما يرام في عالمنا المثالي الصغير؛ كثير من الأشياء تؤول إلى الأسوأ، وبشكل ينذر بالخطر.

أدرك أنّ حكمي هذا قد يبدو قاسياً، لكن لا يمكن أن أسمح لنفسي بانتقاد العالم العربي، من دون أن أنتقد، بقلمٍ أشدّ قساوة، بلدي نفسه الذي هو جزء من هذه المنطقة العربية. فضلاً عن ذلك، إنني مقتنعةٌ بأنّ الوطنية تعبيرٌ عن إحساس رومنطيقي خالص، تالياً هي غير مقبولة بالنسبة إليّ. الوطنية تُعمي بصيرتك، وتجعلك ميالاً إلى خداع ذاتك. الوطنية تؤطّرك ضمن حالة مستمرة من الإنكار والعماء

الذاتيين. لذا، إذا لم ننتقد أنفسنا بشراسة، ولم نحاول أن نتطوّر ونمضي قدماً، فلا يجوز لنا عندئذٍ أن نرسم أيّ توقعات. في هذا السياق، أعتقد أنّ معظم اللبنانيين يتمتعون، لسوء الحظ، بموهبة خلاّقة إلى حدٍّ ما في التساهل مع الذات. إذا لم يكن في استطاعتنا إلقاء اللوم على الحرب، لُمنا الوضع السياسي. وإذا لم نتمكّن من لوم الوضع السياسي، ألقينا باللوم على الديون. وإذا نجت الديون من الملامة، حمّلنا القوى الخارجية المسؤولية. وإذا كان تحميل هذه القوى المسؤولية غير ممكن، آثرنا لوم الدول المجاورة. وهكذا دواليك. الشيء الوحيد الذي لم نوجّه إليه أصابع اللوم بعد هو الطقس، ومن المحتمل أن نحمّله مسؤولية مآسينا في القريب العاجل، ولا سيّما أنّ جعبتنا قد نفدت من الحجج، وأنّ الاحتباس الحراري يبدو حجةً مقنعة وجديّة فعلاً.

لأجل هذه الأسباب وسواها كثير، أشعر بضرورة بذل كل ما في وسعي كي أنتصر على رحم بيروت الخانقة، وتأثيراتها السلبية عليّ: بيروت التي تشبه وحشاً لا بدّ من طعنه في الصميم، لئلا يستمرّ في التهام قطعة جديدة مني كلّ يوم، إلى أن لا يبقى مني شيء.

تحدّثني عن الانتماء؟ لا، شكراً. أنا لا أودّ الانتماء إلى مكان كهذا.

هل كنت أنت لتودّ ذلك؟

* * *

في بعض الأحيان، يسألونني عن مسائل تتعلق بالهوية، وعمّا يعنيه هذا الأمر بالنسبة إليّ. في الواقع، إضافةً إلى تشكيكي في كل هذه المفاهيم المطلقة، وفي الكلمات التي لم تُبتكَر إلا لتكون رنّانةً برّاقة، أؤمن بأنّ هذه الحياة تنقسم ما بين «أنفسنا» والرؤيا التي نملكها عن أنفسنا. أما الرؤيا التي أملكها عن نفسي - أو على الأقل تلك التي تعجبني، بما أنني أنظر إلى نفسي من زوايا متعدّدة، منها زوايا بشعة تماماً - فهي تصوّر شخصاً بلا مرساة. ربما لهذا أشعر أحياناً كأنني أنتمي إلى أماكن بعيدة أكثر من انتمائي إلى المدينة التي ولدتُ فيها. هو شعورٌ يلجّ بي عندما أتنزّه في شوارع سان جيرمان الباريسية مثلاً؛ أو عندما أرفع رأسي لأتأمّل السماء المتبدّلة ألوانها فوق أي مدينة إيطالية؛ أو عندما أتمشّى على شاطئ كارتاخينا في كولومبيا. هذه الأماكن مجتمعة هي وطني والأرض التي أنجبتني. وهو وطنٌ سيبقى ناقصاً دوماً، أضيف إليه مدناً وأماكن جديدة كلّما اكتشفتُ فلذة جديدة مني في بقعة مختلفة من العالم. في هذا الإطار، سألني أحد أصدقائي مرةً: «ما هو مكانك المفضّل في العالم؟»، فأجبته فوراً: «رأسي». وبعد، فمن يدري، لعلّ مدينتي الحقيقية هي، بكل بساطة... أنايَ!

(وحضن الرجل الذي أحبّ، عندما أكون واقعة في الغرام).

أما الانتماء، فلا. لقد نشأتُ في بلد يكرهني؛ بلد أعرب مراراً عن كرهه لي بأبشع الطرق وأفظعها. وأنا لا أريد الانتماء إلى مكان كهذا. كلا، لا أنتمي إلى بيروت بكل تأكيد: أقطن فيها ليس إلا. في الواقع، إنّ مجرد فكرة الانتماء إلى رحم وحشية، قاتلة، مثل هذه، ترعبني؛ رحم لا تمنحك الحياة إلا لتعود فتسرقها منك بمختلف الطرق والتقنيات السادية. أعرف أنني كلبنانية، وكعربية، ثمرة هذه الرحم، لكنني أشعر أنني غير قادرة على الانسجام وهذا المكان. لكأنه بصقني ثم تركني وحيدةً

في الغابة. لذا كان من الطبيعي جداً أن أرفضه بدوري وأحاول أن أُلحق به الأذى، فأنبش فيه أظفاري كحيوانٍ ضار وأسدّد إليه ركلات عنيفة بقدميّ.

* * *

«يجب أن أكون قاسياً كي أغدو طيّباً» (شكسبير، هاملت). لست قاسيةً على بيروت. كل ما في الأمر أنّ ترحالي في هذه المدينة قد شهد، ولا يزال يشهد، سلسلة متعبة من المطبّات والصدامات. لكن حريّ بي القول إنّ نجاتي من هذه المتاعب (فالمرء لا «يحيا» في بيروت، بل «يصمد على قيد الحياة»)، والتحلّي بحزم وصلابة حيال ممارسة حياتي والتعبير عن رأيي بطريقتي الخاصة، قد ساعدا أيضاً في نحت صورة المرأة التي أنا عليها اليوم، كما منحاني قدراً كبيراً من الرضى وأسبغا عليَّ إحساساً رائعاً بالاكتفاء. ولعلّ أحد الأعراض الجانبية الإيجابية التي نتجت من هذا العناد يتعلّق بوالدي. فهذا الوالد نفسه الذي لم يكن يسمح لي بالخروج من المنزل بمفردي؛ الذي كان يصرّ على معاملتي كملاك بريء فحسب؛ الذي كان، عبثاً، يخفي كل الكتب الخطيرة والمفسدة في رأيه فوق الرفوف العليا من مكتبته؛ هذا الوالد نفسه هو اليوم، وهنا الغرابة، الداعم الأكبر لما أقوله وأفعله. في الواقع، ليس داعماً فحسب، بل وفخور بي أيضاً. فخور ومتحمّس وناظر إليَّ بعين التقدير والإعجاب.

هنا، يجدر بي القول إنّ نجاة امرئ من الحرب خير تمرين. لو لم تكن الحرب بهذه الوحشية، لكنت أوصيتُ بها كأفضل درس للانطلاق في هذه الحياة. بالفعل، أشعر كأنّ تراكم سنين من الثبات والجهد والمثابرة، من التصميم والإيمان الراسخ، من المطالبة بحقوقنا في البقاء على قيد الحياة، في أن نكون أحراراً وعلى طبيعتنا، من مكافحة الحروب الأبشع والأفظع تماماً كما الحروب الصغيرة، كلّ ذلك قد جبل فينا إرادة يمكن أن تحرّك جبالاً.

في حالتي أنا: هي جبال حرّكتها إرادتي والشعر على السواء.

أما الشعر، فهو، حتماً، حكاية أخرى.

3 امرأة عربية تكتب شعراً إيروتيكياً

«ليس من الممكن رسم عالم أفضل من دون تحرير عقول النساء، وأجسادهن، وفوق كل ذلك لغتهنّ».

نوال السعداوي
كاتبة وناشطة ومحللة نفسية مصرية (1931-)

أوّل مرةٍ أوردتُ فيها كلمة «قضيب» في قصيدة، كنت على الأرجح في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمري. يومها، قرأها والدي (ولا عجب، فهو ووالدتي كانا، ولا يزالان، من أبرز قرّائي والمعجبين بي)، فلم يملك نفسه من هول الصدمة. علا صوته وراح يعترض ويحتجّ: «كيف تتجرّئين على كتابة مثل هذه الترّهات الشنيعة ثم نشرها بتوقيعك؟». كانت نبرته تتردّد ما بين الإنكار والسخط وهو يقول: «أما كان في إمكانك الاستعاضة عنها بكلمة «عمود» مثلاً؟» فأجبته: «في الحقيقة يا أبي، لقد ضقت ذرعاً بسلسلة الاستعارات التي لا تنتهي، وبشتى الكنايات والألقاب المستخدمة لوصف العضو الذكري. إنني أكتب قصيدة نثرية في وصف القضيب لتُنشَر في مجلة شعرية، وأودّ أن أسمّيه باسمه».

كان الأمر بهذه البساطة (وهذا التعقيد في آن واحد).

غنيّ عن القول إنّ والدي العزيز أخفى المجلة مباشرةً بعد صدورها، وراح يدعو في ابتهال ألاّ يقع أحدٌ من أفراد الأسرة على العدد المذكور، فيطّلع على هلوساتي الفضائحية!

لِمَ أقصّ عليك هذه الحادثة؟ ليس طبعاً لأنّ القضيب موضوع غنيّ وممتع في الضرورة. في الواقع، هدفي الأساسي من ذلك كلّه هو الإشارة إلى مراحل تطوّري وانتقالي من حرية الفكر إلى حرية التعبير. كما سيتبيّن لاحقاً، لم يحدث هذا التطوّر بالسرعة المطلوبة، على رغم التأثير المحفّز الذي خلّفه فيَّ «الماركي دو ساد وجماعته»، وميولي «المنحرفة» بالفطرة. ففيما كانت أفكاري وخيالاتي الجامحة تركض بحرية داخل رأسي من دون أي إحساس بذنب، وجدتُني بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت كي أحرّر لساني من عقدة الخوف الذي تثيره الكلمات. فأنا التي كنت قد بدأت بالكتابة في الحادية عشرة من عمري، احتجت إلى أكثر من خمس عشرة سنة كي أجرؤ على التعبير، بقلم واثق، عن أفكاري واقتناعاتي الحقيقية باللغة العربية. في الواقع، عندما أعود اليوم إلى قراءة شعري من حقبة «ما قبل القضيب»، يتملّكني شعورٌ بالغضب والخزي والغثيان؛ فهي تذكّرني بكم حُرمت النساء في ثقافتنا من التعبير عن أجسادهنّ لمدة طويلة جداً. يثير حنقي الإخصاءُ الخبيث الذي تعرّضَت له، بغير حقّ، اللغة العربية، وبالتالي الذي تعرّضت له أنا حين شرعتُ الكتابة بها. ويملأني الخزي والغثيان وأنا أقرأ هذا الكمّ من الكلمات المعطّرة والاستعارات المجمّلة التي استخدمتُها في البدء محاولةً إخفاء ذاتي الحقيقية. في هذا الصدد، ليس من الغريب أن يكون ديواني الشعري الأوّل قد صدر باللغة الفرنسية. فقد كنت، في بداياتي، أختبئ، بكل جبن ووضاعة، خلف ستار اللغة الفرنسية، لعلّي أتجنّب مواجهة العربية.

لا يخفى على أحد أنّ اللغة العربية تفاخر بالكمّ الهائل من الاستعارات والكنايات والمرادفات التي تضمّها في جعبتها. فلِمَ المجازفة إذاً باستخدام لفظة «نهد» عندما يكون في الإمكان الإفاضة في الحديث عن الهضاب أو الجبال (استناداً إلى حجم حمّالة الصدر)، وثمار التفاح أو الكمثرى (استناداً إلى استدراة الثديين ومدى بروزهما)؟ لِمَ إثارة حساسية القارئ من خلال استخدام مفردة «البظر» عندما يكون في إمكانك إطلاق العنان لخيالك لوصفه بأنه «زهرة الجنة» أو «شفة الفردوس» أو، إذا كنتَ موهوباً حقاً، بـ «عتبة البركان»؟

لكن آمل ألاّ يساء فهم تهكّمي: فالتشابيه والصور محبّبة إلى قلبي، وهي جزءٌ من اللعبة الشعرية في طبيعة الحال. ولكن عليها أن تكون خياراً، لا فرضاً: هنا يكمن الفرق كله. ثم إنني مقتنعةٌ أيضاً أنّ هذه اللعبة نفسها تكمن في مكان آخر أيضاً: في قوة الرسالة التي أبعث بها، في المنظور الذي منه أرسل الرسالة، وفي مقدار التوتّر الذي تفجّره في المتلقّي ومن ثم تنقله إلى الغير.

هذا ما اكتشفتُهُ عندما تجرأتُ، في أحد الأيام، على الإفصاح عن رأيي. عندما قلتُ: كفى! عندما ثرتُ أخيراً على ذلك الخوف الفارغ من الكلمات العربية (خوف خبيث كالسرطان يلتهمك شيئاً فشيئاً، بصمت مطبق)؛ عندما سألتُ نفسي أخيراً: لِمَ أقبل أن أعامَل كقاصر؟ من يحقّ له، غيري أنا، أن يملي عليَّ حدودي ككاتبة؟ أيّ عناصر خارجية «غريبة» تقرّر إن كانت جرعة الحرية التي سكبتُها في قصائدي «جرعة زائدة» أم لا؟ هكذا، على رغم خطر وصمي بالمرأة الوقحة والمتغطرسة والاستفزازية (وهذا بالضبط ما حدث لاحقاً)، أخذتُ أكتب وأكتب عن الرغبة والنشوة والوركين والرجال واللسان والحلمتين و/أو أي عضو جسدي أو فكرة محظورة أخرى كنت في حاجة إلى الإشارة إليها في نصي.

منذ ذلك اليوم، أضحى الجسد والشهوة مصدرين ملهمين أساسيين أنهل منهما بنات أفكاري.

* * *

«إما تستنزف الكلمة الإيروتيكية وإما أنّ الإيروتيكية تستنزف الكلمة» (جورج باتاي).

«لماذا الإيروتيكية؟ ولماذا الجسد؟» أسئلةٌ تُطرح عليَّ بانتظام. فأجيب عنها بسؤال آخر: «هل نختار، نحن الكتّاب، مواضيعنا حقاً، أم هي التي تختارنا؟».

شخصياً، أنا مقتنعة، بكل صراحة، بالاحتمال الثاني.

لماذا الجسد إذاً؟ بكل بساطة، لأنّ جسدي جزء أساسي منّي ومن روحي وعقلي، وهو حقل تجاربي وميدان عيشي للحياة. هو الأرض التي تستقبل، في رحم ترابها، الشمس والقمر والمطر والريح والنهر والعصافير والناس. الحياة بالنسبة إليَّ تجربة فيزيولوجية، فيزيكية، غرائزية، «حواسية»، بقدر ما هي نفسية وعاطفية وفكرية. الكتابة أيضاً. بل الكتابة خصوصاً. كل شيء عندي محسوسٌ وقابل للمس: الشعور، الماوراء، الضمير، الخيال، الجوهر، الذهن، اللاوعي، الزمن، الإيمان، الحب، إلخ. وأنا إذ أكتبُ عن الجسد والجنس وعن رغباتي واستيهاماتي، لا أفعل ذلك لكي أقدّم «وجبات حارة» للقارئ، مثلما تتهمني ذكورية بعض النقّاد العرب، بل سعياً منّي إلى أن أكون أمينة لما أعيشه في داخلي ولما أهجس به.

لا فصل عندي بين مادة الحياة ومادة الكتابة: أي إن كل ما أعيشه تقريباً هو احتمال نص (كُتِب أو سوف يُكتَب) ، مثلما أنّ كل ما أكتبه هو احتمال حياة (عشناها أو سوف تُعاش). عندما أكتب، أشعر بأنني أكتب بجسدي وعليه، بأظفاري ومنها، وأن كلماتي تنفجر من مسامي وتنحفر على جلدي نفسه. إنها رحلة صيد شرسة وعنيفة ودموية بقدر ما هي مغامرة تأمّل رقيقة وهامسة وخفرة. كذلك قراءاتي: ترنّ أصداؤها في لحمي الحيّ بقدر ما ترنّ في عقلي الواعي واللاواعي. في حياتي ويومياتها، لا تنفصل روحي الحميمة عن جسدي الحميم: كلٌّ منهما وجه للآخر وتوأمه وشريكه في «ارتكاب الجرائم».

لكنّ السؤال نفسه يظل يطالعني: «لماذا الجسد؟».

غالباً ما أردّ بسرعة وحسم: «ولِمَ لا بحقّ السماء؟ ما الداعي إلى التبريرات والتفسيرات؟». أدرك أنّ هذه الإشكالية قد تبدو سطحية وتافهة، لا بل عتيقة الطراز، بالنسبة إلى العديد من الناس في الغرب، لا سيّما أنّ المؤلّفين والمؤلّفات الذين يتعمّقون في الجانب الإيروتيكي من الكتابة يُعَدّون اليوم بالمئات والآلاف، وهم يَعتبرون هذه العملية الاستكشافية أمراً مسلّماً به جدلاً. لكنّ الأمر ليس، لسوء الحظ، على هذه الحال في العالم العربي. فهنا، تُفرض ضرائب باهظة على حرية الكلام، وخاصة على المرأة. وهنا، لا يزال كثيرون يتحدثون عن «طهر» الأدب وفضيلته، وكأنّ له مهمّة تربوية وأخلاقية!

لو كان الأمر كذلك، ماذا نفعل بسيلين وباوند وجينيه؟ ماذا نفعل بساد ونابوكوف وباتاي وكالافيرت ونين وميلر، ومئات بل آلاف الكتّاب الذين انتهكوا، ولا يزالون ينتهكون لحسن الحظ، القواعد والتقاليد من دون أن يترددوا ولو للحظة واحدة؟ البراءة الحقيقية هي الصدق مع الذات والآخر، وأرى الكتابة عن الجنس وفيه ومنه أمراً طبيعياً وفطرياً وعادياً ومنطقياً إلى حد أنني أستهجن أيّ سؤال أو تعجّب أو فضول (أو استنكار، طبعاً وخصوصاً) يصبّ في هذا المكان. أحاول - أحياناً، في أيامي المشرقة - أن أكون متفهّمةً ومتسامحة ورؤوفة، وأن أعزو ردّ الفعل «الشاذ» هذا إلى مناخ مجتمعنا الشرقي الخبيث، واستغراق هذا المجتمع في هواية دفن رأسه في الرمال (نحن

جنس هجين بين الطواويس والنعامات). لكنني أعترف بأن التفهّم والتسامح والرأفة ليست شيماً متوافرة دوماً لمزاجٍ وعر وقليل الصبر كمزاجي، خصوصاً حيال تجليات الجُبن والسذاجة والمعايير المزدوجة في عالمنا العربي السعيد.

أجل، لا يزال عرب كثيرون يتحدثون عن «طهر» الأدب وفضيلته، بينما يحرمون الكتّاب حريةَ التعبير. هل ثمة عهر أكثر فظاعة من حرمان الكاتب كلماته؟

فلنسمِّ الأشياء بأسمائها: الرقابة عملية اغتصاب.

* * *

يدفعني ذلك، حكماً، إلى التوسّع في واقع آخر ذي صلة بالموضوع: كل تلك المعايير المزدوجة والممنوعات والكبت والقيود التي شهدتُ وأشهد عليها، أنا والعديد من الكتّاب العرب أمثالي، تنطبق على النساء، كما ذكرتُ أعلاه، بصرامة واستبداد لا يختبرهما الرجال بالدرجة نفسها؛ لا بل إنها، في العديد من الحالات، لا تنطبق على الرجال بتاتاً. ففي عالمنا العربي العزيز، يُؤذَن للرجال بالتحدث عن أعضائهم التناسلية بمقدار أكبر من الحرية (ناهيك باستعمالهم لها بمقدار أكبر من الحرية كذلك). كما يُؤذَن لهم، كعلاوةٍ مجانية، بالتحدّث عن أعضاء النساء التناسلية أيضاً. أما المرأة، فحسبها أنها الجهة المباركة المتلقية للكلمات الذكورية، أو ذلك المفعول به الذي تخطّ عليه الأقلام الذكورية نصوصها. فالمرأة لم تُخلَق لتعبّر عن نفسها، بل ليُعبَّر عنها. في هذا الإطار، كتب الفيلسوف الفرنسي ميشال أونفري في كتابه قوة الوجود : «عندما يمنحنا الأدب بطلةً نظيرة لكازانوفا، وعندما يضفي هذا الاسم صفة إيجابية على الشخص الذي يحمله، عندها فقط يمكننا التحدّث عن مساواةٍ حقيقية بين المرأة والرجل». لا أعتقد أنّ أونفري كان يقصد أنّ النساء في حاجة إلى عيش حياتهنّ الجنسية بهذه الطريقة التافهة، تماماً كما فعل المسكين كازانوفا، كشرطٍ أساسي للتساوي مع الرجل. فالحلّ بالنسبة إلى المرأة لا يتمثّل، بكل تأكيد، بالوقوع في فخّ الكمية على حساب النوعية. بل إن أونفري كان في رأيي يتحدّث عن حق، عن مختلف الدلالات التي تنطوي عليها وتعكسها صفةٌ معيّنة، إذا تناولناها من منظور التمييز الجنسي. في هذا السياق، تنطبق كلماته تماماً على دوائر النقّاد العرب الذكور (وفي بعض الأحيان الإناث كذلك).

على سبيل المثال يكاد نقّادنا يُجمعون على استخدام مفردة «جرأة» للنساء الكاتبات حصراً: فالمرأة إذا انتهكت، جريئة. أما الرجل إذا انتهك، فأمر أكثر من عادي، لأنه «يستكشف أدبياً كل طبقات الحياة». تكتب امرأة، في جملة ما تكتب، عن الجنس، فتوصَف، كأنْ سلفاً، بالكاتبة الإيروتيكية (لا أقول ذلك لأنّ هذا اللقب تحديداً يزعجني؛ بل ما يزعجني هو الوصمة السلبية التي تترافق مع اللقب في ربوعنا العربية). بالفعل، يكتب رجل في الموضوع نفسه، فتمر كتاباته هذه مرور الكرام. كأنها «طبيعية».

لكنها فعلاً «طبيعية»، تلك الكتابات، سواءٌ صدرتْ عنـ«ه» أو عنـ«ها». الأجمل أن تكون بالسليقة. فحتّامَ نظل نتناول الجسد والجنس في عالمنا العربي، إما بإيحاءات موارِبة مضحكة، وإما بكليشيهات مغلوطة؟ تذهلني، مثلاً، ترجمات الأفلام الأجنبية في بعض محطاتنا العربية، وتجعل حرارتي ترتفع غيظاً. كيف لا والعاشقان الشغوفان جوليا روبرتس وريتشارد غير لا «يمارسان الحب» بل «يمضيان الليلة معاً»، والجميلة تشارليز ثيرون لا تخبر صديقتها أنها أشبعت حبيبها قُبَلاً بل أنها «تمادت» معه، والمتلصّص براد بيت لا يرى أنجلينا جولي عارية بل «على طبيعتها»،

وليس لصوفي مارسو نهدان شهيّان بل «منحنيات» جغرافية، وهكذا دواليك من دوران جبان حول الكلمات والأفعال والحقائق والوقائع، ومن تشويه مضحكٍ مبكٍ للسيناريو، ومن فصام سخيف ومثير للحنق بين الأصل والترجمة.

تالياً، يصبّ السؤال الآتي في صلب موضوع هذا الكتاب. فأن نسأل: ماذا يعني أن تكوني امرأةً عربية؟ يفترض أيضاً، في ما يفترض، أن نسأل: ماذا يعني أن تكوني امرأة تكتب في بلدٍ عربي؟ والأفدح: ماذا يعني أن تكوني امرأةً تكتب بلا مساومات في بلدٍ عربي؟

* * *

أن تكوني امرأةً تكتب في بلدٍ عربي معناه، طبعاً، مسلسلٌ متقطّع من الإجحافات والتعتيمات والاستخفافات، ومن عمليات التهميش والإقصاء المدبّرة أو «البريئة»، التي قد يقف وراءها الرجل، أو المرأة نفسها، أو ربما الاثنان معاً.

أن تكوني امرأةً تكتب في بلدٍ عربي يعني أن تحتالي قليلاً وتواربي كثيراً وتستعيري من هنا وتتقنّعي من هناك.

أن تكوني امرأةً تكتب في بلدٍ عربي يعني، للكثيرات - ولكن ليس للجميع لحسن الحظ -، أن تسمّي الأشياء بغير أسمائها، فيصير العشيق، مثلاً، «صديقاً عزيزاً»، والأب المغتصِب والدَ ابنة الجيران المسكينة، وهلمّ.

أن تكوني امرأةً تكتب في بلد عربي يعني أن تواجهي، مراراً وتكراراً، تلك الشكوك المهينة التي تلفّق أنّ رجلاً ما، في مكانٍ ما، يستلّ قلمه في الخفاء ليكتب عنك ما تنشرينه باسمك الخاص.

أن تكوني امرأة تكتب في بلد عربي يعني أن تمارسي على نفسكِ رقابةً ذاتية، لهي أقسى وأشرس وأشدّ اعتباطيةً وظلماً من ألف رقابة «رسمية» تُفرَض عليكِ فرضاً من الخارج.

أن تكوني امرأة تكتب في بلد عربي يعني أن تخطّطي طويلاً وتبحثي عميقاً وتحسبي بدقّة وتجازفي بذكاء وتسايري فلاناً وتداري فلانة، إلى آخره.

أما أن تكوني امرأة تكتب بصدق وشفافية في بلد عربي، وبلا أيّ مساومات (كمساومة العائلة، مساومة الدين، مساومة التقاليد، مساومة المجتمع، مساواة الرقابة)، فيعني أن تكوني، فوق كل ما سبق، وقحةً و«قدريّة» وشجاعة. يعني أن تكوني مستعدّةً «للجرصة».

بالتأكيد، ليس سهلاً أن تكوني امرأةً تكتب بلا مساومات في بلد عربي. ليس سهلاً أن تخلعي ثيابكِ قطعةً قطعةً أمام مجهولين. ليس سهلاً أن تودعي الآخرين ماضيكِ وحياتك وأحلامك وهواجسك واستيهاماتك و«أخطاءك» واعترافاتك، خصوصاً عندما لا يكون هؤلاء الآخرون محض قرّاء فحسب، بل «قضاة» يصدرون أحكامهم عليك بلا رحمة. ليس سهلاً أن تواجهي وحش الإحراج، وأن تثبتي قدرتك على «الستريبتيز» الذهني وأعلى درجات البوح بالذات: ذاتُكِ في قوتها كما في ضعفها، في خيباتها كما في آمالها، في جمالها كما في قبحها، في فضائلها كما في زلاّتها، وأيضاً وخصوصاً، في توهّجها ونبلها كما في دناءاتها.

لا، ليس سهلاً على الإطلاق أن تكوني امرأة تكتب بلا مساومات في بلد عربي. والناس يدركون ذلك جيداً. لذا، باتت تحوم حول كلّ كاتبة، تقريباً، سلسلة من التهم الذكورية بامتياز. فكم من مرّة، مثلاً، تحوّلتْ مقاطعُ الجنس الساخنة في رواية، بقلم امرأة، مبرّراً للتندّر والتهويم والإحالات على الحياة الجنسية لتلك الكاتبة ومغامراتها؟

* * *

لكن هذه الكاتبة بالذات تستحقّ مَن يقدّرها، ويستمع إليها، ويعترف بها، بعيداً عن التقويمات الذكورية التافهة. فأن تكون ما هي عليه ليس أمراً بسيطاً أو سهلاً، وليست عملية مجرّدة من المصاعب أو الألم. ولا يخفى على أحد أنّ النساء اللواتي يتمتعن بهذه المكانة في ثقافتنا ولغتنا لسن بقليلات. من هنا، يؤسفني حقاً أنّ القسم الأغلب من اهتمام الغرب بكتاباتنا، مثلاً، غير موجَّه ضمن الاتجاه الصحيح، بل تراه يقبل على النصوص المضلّلة أو الحافلة بالدراما والإثارة، على حساب الأدب الحقيقي: ذلك الأدب الذي يخاطب الحقيقة الجوهرية للإنسان، مهما كان انتماؤه وأينما وجد، لأنه هو حامل الحقيقة الكلية.

قد يُخيّل للبعض أنني أصنّف الأدب الإيروتيكي/الصادم في مرتبة تفوق كل مراتب الأنواع الأدبية الأخرى، لكنني أؤكد أنّ هذا ليس اقتناعي على الإطلاق. كلّ ما في الأمر أنّ امرأةً تكتب أدباً إيروتيكياً/فاضحاً في العالم العربي هي كاتبة تطالب بالحرية كضرورة لا غنى عنها، بالمقارنة مع العديد من العرب الذين يعتبرون الحرية ترفاً أو مجرّد عنصر من الكماليات. لكنّ الحرية ضرورة قصوى وملحّة: أعني حرية الكتابة بوضوح تام، تماماً كحرية التخلي عن هذا الوضوح؛ حرية زرع الصدمة في نفوس الآخرين، تماماً كحرية الامتناع عن ذلك. باختصار: حرية الاختيار ؛ أن يختار كل امرئ ما يريد أن يقوله، وكيف يريد أن يعيش ويشعر ويتصرّف. في الحقيقة، لا شيء يفوق حرية الاختيار أهميةً سواء على الصعيد الفكري أو الشخصي. وهذه الحرية هي التي تختصر الشعر برمّته.

* * *

على هامش التعمّق في العلاقة ما بين الشعر والحرية، وفي ما يتعدّى النقاش المتعلق بالكتابة الإيروتيكية، لعلّ أقل ما يقال هو: أن تكون شاعراً اليوم عملية معقّدة في حدّ ذاتها. فنحن ننتمي إلى جنس مهدّد بالانقراض، جنس ليس مجهزاً بما فيه الكفاية لمكابدة حياة خالية من الأخطار على هذه الأرض. لا تحسب أنني أنجرّ هنا وراء الكليشيه القائل بأنّ المرء لا يستطيع أن يكتب شعراً ما لم يكن يعيش حياةً شقية بائسة. بل على العكس. فأنا شاعرة أبيقورية تطمح إلى أن تكون سعيدة بأيّ ثمن. كل ما في الأمر أنني لا أعرف السبيل إلى ذلك دوماً (هل تعرف أنت؟ رجاءً أخبرني!).

كيف لا وهوية الشاعر العربي مسألةٌ يكاد يكون الحفاظ عليها ضرباً من المستحيل. لماذا؟ لأننا، بكل بساطة، نعاني، فوق العوائق المذكورة أعلاه، بلاءً أسود هو مؤشّر القراءة الكارثيّ في ثقافاتنا ومجتمعاتنا. سأترك الأرقام تتحدّث عن نفسها. وفقاً للإحصاءات الأخيرة، أعيش في منطقة حيث يبلغ معدّل الأشخاص الذين يقرأون 0.1% من أصل 270 مليون نسمة؛ وحيث مجرّد 40% من تلك النسبة المحبطة (0.1%) تقرأ الكتب؛ وحيث 9% من تلك الـ 40%، المقتطعة من الـ 0.1% الأولية، تقرأ شعراً... أترك لك إذاً مسألة احتساب الأرقام: هذا يعني، وفقاً لمهاراتي المتواضعة في الحساب، أنّ 9720 شخصاً فقط يقرأون الشعر في عالم عربيّ هائل يزعم، «بكل فخر»، أنه منبعٌ لأكثر من عشرين ألف شاعر! ألا يبدو لك ذلك سخرية من سخريات الأقدار؟ مع ذلك، لن يستفزّ فينا هذا الأمر، نحن الشعراء العرب، أيّ رغبة في الضحك أو القهقهة، إذ نرى أنفسنا مأسورين، بكل ما للكلمة من معنى، ضمن حلقة مسيّجة صغيرة، تضيّق علينا الخناق. أضف إلى ذلك صعوبة العثور على ناشر، ناهيك بصعوبة احتمال ترجمة العمل إلى أي لغة أخرى، كي لا نتحدث عن الفوقية التي

يتعامل بها الناس مع الكتّاب عموماً، والشعراء خصوصاً: هكذا تحصل على عالم هو، بالفعل، جحيم الشاعر ومقبرة الشعر! في الواقع، كم من مرّة استيقظتُ وأنا أشعر أنّ لغتي مخنوقة، تتدلى من حبل مشنقة، لسانها ممدود يبحث عن الهواء، بلا جدوى...

لِمَ أكتب الشعر إذاً؟ لِمَ لا أكتب الروايات كما يسألني الكثير من الناس؟ لأنّ «الشعر دليلٌ على أنّ الحياة ليست كافية»، كما قال فرناندو بيسوا ذات مرة؛ لأنّ الشعر حاجة ملحّة، لا بل قصة حب متّقدة، تبدأ بلا إنذار ولا تمهيد وتلبّي نداء روحي المتلهفة؛ لأنه مبارزة لا تنتهي بالسيف بيني وبيني؛ لأنه يجعلني أدرك أنني على قيد الحياة؛ لأنه مضاعفة للحياة؛ لأنه يمثّل لحمي ودمي كما لطالما أردتهما: من دون الجلدة الوقائية.

لكن لا يمكن أن نغضّ الطرف عن الحقائق المظلمة الآتية:

«كل عربيّ يقرأ ربع صفحة في السنة»[2].

2. التقرير العربي الأول المعني بالتنمية الفكرية، الصادر عن مؤسسة الفكر العربي، 2008، باللغة العربية.

«بالكاد يمثّل الشعر 0.2% من سوق الكتب في أوروبا»[3].

3. سيباستيان دوبوا، الشعر في أوروبا ، 2003.

«الأشخاص الذين يقرأون الشعر هم، غالباً، الأكبر سناً»[4].

4. http://www.guardian.co.uk/uk/2006/jan/29/poetry.books

لا تنفكّ هذه التعليقات وغيرها ترجّع صداها في رأسي، بكل ما أوتيت من وحشية. لكن ما حاجتنا إلى الأرقام في كل حال؟

فنحن لا نكتب الشعر للحاق بركب الموجات السائدة، ولا نكتب الشعر جرياً وراء أطياف الشهرة.

إننا نكتب الشعر لنكون أحراراً.

وهذا، بالنسبة إليَّ، سيبقى دوماً، السبب الوحيد، والأكثر إلحاحاً بين جميع الأسباب.

«بغضّ النظر عن حجم التطوّر الذي حقّقناه، لا يزال هناك عالم يُحظر على المرأة دخوله. وفي هذا العالم تكمن حريتها» (زها حديد). في الواقع، أذكر أنّ القصيدة الأولى التي كتبتُها، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، حملت عنوان «حريّتي». قد يعزو البعض هذا الأمر إلى المصادفة. أما أنا، فأفضّل أن أسمّيه قدراً. وكلنا يعرف أنّ ما بين المصادفات والأقدار فرقاً هائلاً.

وقد اكتشفتُ أنا هذا الفرق خلال مراحل تأسيس مجلتي «جسد».

لكنّ هذه، أيضاً، حكاية أخرى.

4 امرأة عربية تؤسّس مجلةً عن الجسد

«أنا لم أكن ذاتي يوماً
أنا لم أسمَّ من قبل
لكنني هرعتُ إلى جسدي وأسميته
وعلى حافة الهلاك قلتُ
أنقذيني يا أنا».
ميسون صقر القاسمي
شاعرة إماراتية (1959-)

هل أنا مجنونة؟

غالباً ما أطرح على نفسي هذا السؤال، بكل ما يعتريني من عقلانية وتهكّم. ولأصدقك القول: لعلّي مجنونة فعلاً: فأنا لا أملك الجواب اليقين. زد أنني لست متأكدة إن كان الجنون أمراً سلبياً بالمعنى الاستعاري للكلمة. لكن ما أنا على ثقة منه هو أنني عنيدة عناداً يبلغ أحياناً حداً منافياً للعقل (وقد يقول البعض غبياً). كما إنني درّبتُ نفسي على تحمّل الجدل، ذلك الذي ينجم عن كتاباتي وأفكاري. ومع أنني لا أؤمن بمنطق «أنا أصدم، إذاً أنا موجود»، ولا أنظر إليه بعين التقدير، ومع أنّ الاستفزاز وتأثيراته الجانبية ليست من الأمور التي أضعها نصب عينيّ، إلا أنني أشعر بأنني قادرة على التعاطي معها إذا دعت الحاجة.

ولا يخفى على أحد أنّ هذا الأمر بات أكثر من ضرورة بعد ولادة مجلة «جسد».

في عام 2006، بدأتُ أقلّب في رأسي فكرة إنشاء مشروع خاص بي. وسرعان ما أدركتُ، لكوني كاتبة وصحافية، أنني أريد تأسيس دار نشر صغيرة، ومن ثم تحرير مجلة ثقافية كمشروع أول. لكن، لم أكن لأرضى بأيّ مجلة ثقافية، بل رحت أبحث عن فكرة مختلفة، قوية ومطلوبة. ولم يطل الوقت حتى فرض محور الجسد نفسه عليَّ، لسببين أساسيين: فالجسد هو، أولاً، المحيط الذي تسبح فيه لغتي الشعرية والعالم الذي اختارت أن تولد فيه. أما السبب الثاني، فمشاعر الإحباط التي كانت تتراكم فيَّ يوماً تلو الآخر وأنا أرى لغتنا العربية الجميلة قد جُرّدت، بغير حقّ، من مفردات وخيالات جمّة كنّا لنسوّد بها صفحاتنا. بالفعل، أمست معظم المواضيع المتعلقة بالجسد، في تاريخنا الحديث، من المحظورات، وقد نسينا أنّ إرثنا الأدبي القديم حافل بالمؤلّفات التي تجعل أكثر كتّاب الغرب تحرّراً يحمرّون صدمةً وحياءً. لعلّ أقل ما يقال في هذا الأمر أنه كان منافياً للمنطق بالنسبة إليَّ.

لكلّ هذه الأسباب مجتمعةً، بدأت، في أوائل عام 2007، بتصوّر ملامح مجلة «جسد» من عقر بيتي في جونية (مدينة ساحلية عند حدود بيروت الشمالية)، حيث ارتجلتُ لي مكتباً صغيراً رحت أنفق فيه ساعات طوالاً أمام شاشة الكمبيوتر. وسرعان ما ألفت أذناي جملة واحدة لم تتغيّر: «لقد جننتِ بالتأكيد»، وهي الجملة التي طالعني بها كل صديق مقرّب أو فرد من العائلة أطلعته على فكرتي هذه. كلّهم كرّروا على مسامعي العبارة الآتية: «ليس هذا بالمكان ولا الزمان المناسبين لإنشاء مثل هذا المشروع». حتى المحامي نفسه الذي قضت مهمّته بصياغة هيكلية العمل القانونية لشركتي، والاستحصال على رخصة النشر اللازمة، كان يرهب عواقب مشروع كهذا. أما أنا، فبقيت فكرة واحدة تقرع رأسي: «ألا يُفترض بنا أن نخلق أو نخترع اللحظة المناسبة؟ أي فضيلة يمكن أن نستنسبها لأنفسنا إذا اكتفينا بالانتظار ريثما تحلّ هذه علينا؟»

لأجل ذلك لم أفاجأ، ما إن نُشر خبر تأسيسي لمجلة «جسد» في بعض الصحف والمواقع العربية، في خريف 2008، أن شرعتْ تردني العجائب والغرائب من ردود الفعل والتعليقات، عبر البريد الإلكتروني خصوصاً، ولكن أيضاً من بعض «فاعلي الخير»، هواة نقل كلام السوء بحجّة المحبة والمساعدة و«التنبيه».

عند هذه المرحلة، اسمح لي أن أعرّفك، عزيزي القارئ، إلى المجموعة المتنوّعة من التسميات والصفات التي اقترنت باسمي بسبب «جسد»: لاأخلاقية، فاسقة، منحلّة، آثمة، فاجرة، فاسدة ومفسدة، منحرفة، منحطّة، مجرمة، مؤذية، عديمة الضمير وعديمة الشرف.

ولا ننسى أيضاً العبارات المؤذية الحافلة بالتهديدات والإنذارات، من جملة: تستحقّين الرجم حتى الموت. ستتعفّنين في النار. يجب أن تخجلي من نفسك. كيف تجرّأتِ على فعل ذلك؟ أنت تفسدين أطفالنا. سينزل بك الله القصاص. نحن نبصق في وجهك. ندعو الله أن يرشّك أحدهم بالأسيد الحارق... (وأقرّ أن العبارة الأخيرة قد تسبّبت لي بكوابيس مرعبة لأسبوعين متتاليين).

لو كنا نعيش في حقبة مطاردة الساحرات، لكنتُ، على وجه التأكيد، قد خُنِقتُ وطُعِنت وشُنِقت وأُحرِقت وأُغرِقت، ومتّ ألف ميتة كلّها في الوقت عينه.

* * *

لكن على رغم بعض ردود الفعل العنيفة والمخيفة التي واجهتها، شعرتُ بأنني محصّنة تماماً ضدّ تلك الهجمات، خصوصاً ما كان منها «تحت الزنار»، لأسباب ثلاثة: اثنان منها شخصيان، والثالث ظرفي.

فأما السبب الأول لحصانتي فلأنني من النوع الذي يرفض السير في محاذاة الحائط. قد يبدو ما يلي احتفاءً بالذات، لكنني سأقوله في كل حال: بشرتي الرقيقة تتحمّل من الرضوض أكثر بكثير مما توحي. وقد تحمّلت. هجمات الوحوش لا تجعلني أمشي بخطى متباطئة وحذرة في محاذاة الحائط، تجنباً للتنكيل والتشويه، بل تدفعني إلى الإمعان في السير تحت الشمس، بخطى ثابتة وواثقة. لا يعني ذلك أنني مغرورة ولا أُقهَر، بل أنني، بكل بساطة، امرأة تؤثر شقّ الطرق المجهولة والصعبة وغير الآمنة، وصولاً إلى ما يشكل اكتشافاً جديداً، وأفقاً مفتوحاً، في الحياة وفي الأدب، حتى لو كلّفتها هذه الطرق الكثير.

أما السبب الثاني الذي زادني حصانةً، فهو أنني لطالما ازدريت ولا أزال أزدري الإجماع. فالإجماع عندي يساوي عقلية القطيع. ويعني أن الشخص المُجمَع عليه لا لون له ولا طعم ولا رائحة. لا نحتاج إلى ودٍّ ومجاملات كي نشعر بالأمان. لا نحتاج إلى إرضاء الآخرين كي نشعر بالرضى عن ذواتنا. لا نحتاج إلى حماية مشاعر، ظاهرُها مغلّفٌ بالتقدير والمجاملة، وباطنها مفخّخ بالكراهية والحقد. فإذا كان لا بدّ من أعداء (ولا بدّ منهم فعلاً)، فليكن من أعداء. خارج الدمغة الفردية، لا أريد شيئاً يُذكَر، لأن لا شيء يُذكَر. هذا لا يعني الخروج القسري والمفتعل عن السرب والتميّز «بالقوة»، لأن نتيجة التميّز بالقوّة فولكلور سخيف. ولا هو يعني استفزاز الكراهية والحقد بلا مبرّر. بل يعني أن نكون نساءً إشكاليات، لا نساءً طبق الأصل عن النساء الأخريات، نساءً ذوات رأي خاص، وأفكار خاصة، وموقف خاص، لا عنصراً من عناصر المشهد النمطي السائد والمكرّر والواحد، حتى لو كلّفتنا هذه الخصوصية الكثير.

وأما ثالث أسباب حصانتي، فهو من دون شكّ الدعم الذي تلقّيته من اسمين بارزين كانا يشغلان منصباً حكومياً أوان أبصرت «جسد» النور: هما وزير الإعلام آنذاك، طارق متري، ووزير الداخلية في ذلك الحين، زياد بارود؛ وكلاهما مثقّفان واسعا الأفق، يقدّران حرية الفكر والتعبير لا بل يكافحان في سبيلها. وبالتالي فمن محاسن المصادفات أنّ المجلة قد تأسّست في عهدهما، في بلدٍ حيث الخمول والفساد هما الصفتان السائدتان للأشخاص القابضين على مقاليد الحكم. لا ريب في أنّ كلا الوزيرين قد تلقّيا ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الشكاوى، كما واجها ضغوطاً من الشخصيات والمؤسسات الدينية وغير الدينية دعتهما إلى توقيف المجلة. لكنهما قاوما. ولهذا - أعني لتصرّفهما اللائق الذي ينبغي أن يحذو حذوه كل شخص في السلطة - أدين لهما بالكثير من الاحترام والعرفان

بالجميل. فليس سهلاً بالتأكيد أن يخوض المرء مواجهةً يومية مع متطرّفين من الشيعة والسنّة والكنيسة على مشاربها، وما هذا إلا غيضٌ من فيض فسيفسائنا الدينية المتلوّنة. باختصار إذاً، لكليهما أقول: شكراً!

* * *

كتب رولان بارت في «خطاب العاشق»: «ما أخفيه بلساني، ينطقه جسدي». أما أنا، فكنت أريد أن أنطق بلساني ما طُلِب من جسدي إخفاؤه، ولأجل ذلك لم تزرع فيّ ردود الفعل العدائية التي أحاطت بـ «جسد» أيّ دهشة. فهذا بالضبط نوع الاستجابة التي كنتُ أتوقّعها مع نبأ صدور مجلة ورقية تُعنى بـ «آداب الجسد وعلومه وفنونه». وهي، «لزيادة الطين بلّةً»، مجلة باللغة العربية. كما إنها، فوق هذا كلّه، مجلة ترأس تحريرها امرأة لها «سوابق» في تحدّي المعايير.

اسمح لي عند هذه النقطة، عزيزي القارئ، أن أؤكّد أنّ «جسد» ليست مجلة بورنوغرافية، على ما صنّفها عدد كبير من العرب. لكنّ المجلة لا تتنصّل من وصمة البورنوغرافيا بسبب الطهرية والتزمّت. ففي لبنان وبلدان عربية أخرى ما يكفي من البورنوغرافيا السياسية والاجتماعية والإعلامية والفنية والثقافية والعقلية والفكرية والأخلاقية، كي لا نخشى الأقل ضرراً بين أنواع البورنوغرافيا جمعاء: أي النوع الحرفي والمباشر.

لكنّ «جسد» لم تكن ترمي، كهدفٍ أساسي، إلى مساعدة الرجال على القذف عند ممارستهم العادة السرية، بل هي تمثّل مشروعاً ثقافياً وفكرياً وأدبياً وفنياً جدّياً، هدفه أن يسأل عن وعي الجسد، وعن لاوعيه، متأملاً، باحثاً، منقّباً، مختبراً، مُسْلِساً، متمرداً، مستيقظاً، نائماً، حالماً، رائياً، مهلوساً، كاتباً، ناحتاً، راسماً، راقصاً، وخالقاً جسداً ثقافياً لأجسادنا العربية، وهذا كلّه ضمن مغامرة الحرية التي لا يزال الجسد في أوّلها، ودائماً في أوّلها، كما لغاته وتجلياته، لا تزال وتبقى في أوّلها.

* * *

عود على بدء: لم أتوقّع أن ينخرط الناس في تصفيق حارّ ترحيباً بمجلة «جسد». من جهة أخرى، فقد قدّرت كل التقدير الدعم والتشجيع اللذين قابلني بهما العديد من القرّاء. جدير بي القول في هذا السياق إنني أنظر بعين الازدراء إلى من يعشق أداء دور الضحية، وفي طبيعة الحال أنا لا أعتبر نفسي ضحية على الإطلاق؛ كيف أفعل وقد نلت من المديح والتشجيع قدر ما تعرّضت للتهجّم والشتيمة؟ من هنا، ليس إطلاق بوق الشكاوى من خياراتي.

زد على أنني لم أكن أتوقّع أعجوبة في طبيعة الحال. ولا كنتُ أتوهّم أنّ «الوسط»، كلّ «الوسط»، سيستقبل فكرة هذه المجلة بالأحضان، وسيفرح ويبارك ويشجّع ويشيد. لكنني، في المقابل، لم أعرف بلداً في حياتي، ولا ثقافةً تستحق هذه التسمية، تُهاجِم منتَجاً ثقافياً، وتحاسبه بناءً على تصوّره المجرّد فحسب، أي على فكرته، مثلما تكاد تفعل باستمرار بلادُنا وثقافتنا، وحريّ بي القول: ثقافاتنا. ثقافاتنا المتنوعة المختلفة المتناقضة التي، إذ تتخاصم وتتبارى في ما بينها، لا تتبارز غالباً، للأسف، سوى لإعلاء شأن الرداءة والخساسة والحِطّة... والرقابة.

الرقابة! ذلك الملاك الأسود الشهير الذي يحوم فوق مثلّث برمودا العربي في بلداننا، وأعني مثلّث الجنس، الدين والسلطة. لو لم يكن مقصّه شريراً، لكنت شعرتُ تجاهه ببعض الشفقة.

فأيّ رقابة في زمنٍ بات فيه المنع ضمان انتشار أكبر، ونجاح أوسع، وتسويق أدهى لكل عمل، حتى أضحت الرقابة عدوّة نفسها الأولى؟!

أيّ رقابة في زمنٍ صرنا نحصل فيه، بكبسة زرّ بسيطة، على كل المعلومات التي نريد وأكثر؟

يُفترض في الرقابة أن تكون ماكرة وذكية، وهي، في عالمنا العربي، غبيّة بامتياز.

يُفترض في الرقابة أن تكون متطوّرة، وهي، في عالمنا العربي، بدائية بامتياز.

تزعم المؤسسات الثقافة العربية الرسمية، زوراً، أنها تحمي بالرقابة أخلاقيات الثقافة بينما هي لا تحمي إلاّ ثقافة محددة: ثقافة الكذب والمرض والرجعية والظلامية. تدّعي هذه المؤسسات الشفافية والبرء والحداثة، لكنها في الواقع منخورة بطبقات سميكة من غبار الدجل والرياء والاهتراء والتخلف.

إنها أزمة العقل العربي، المؤسساتي والرسمي، وأيضاً العقل غير المؤسساتي والرسمي، تلك التي تريد لكل شيء في هذا العالم العربي أن يكون مأزوماً بالمعنى الرجعي والظلامي للكلمة. إنها سلطة الدين، سلطة الدولة، سلطة الأهل، سلطة الخوف، وسلطة التابو المتمكن من ضحاياه.

العقل العربي في أزمة. ولأنه كذلك، يريد من الجميع أن يكونوا غارقين في الأزمة مثله. يريد أن «يطمئن» إلى أنّ الوضع مستتبّ، وأنّ صَفْوه لن يتعكّر بسؤال. هذا العقل لا يستطيع تحمّل الأسئلة، لأنّ الأسئلة تسأل وتقضّ وتوجع، وتجعل الحياة «المطمئنة»، الراكدة كمستنقع، متعكّرة متلبّدة.

ثم نسمع العرب يتحدثون ويستفيضون حول سوء الفهم الذي يواجهنا به الآخر، بينما هم لا يفعلون سوى تأجيج سوء الفهم هذا، وخلق الأعذار والذرائع له، وحضّ الغرب على أن يكون تعميمياً، من غير حق، حيال الثقافة العربية، وأحياناً كثيرة عنصرياً أيضاً.

* * *

«إذا طال مقصّ الرقابة الجسد، فسيطال في الوقت نفسه النَّفَس والكلمة. يجب أن يلقى جسدك من يصغي إليه» (هيلين سيكسوس). ولكن أنّى لنا، نحن العرب، أن ننجو من قبضة هذا العالم المليء بالإغراءات الدنيئة، بدون رقيب ينقذنا؟ أنّى لنا أن نكون القديسين والأنبياء الذين من المقدَّر لنا أن نكونهم، بدون عين شقيق أكبر تسهر علينا؟ فالجميع في بلداننا العربية السعيدة، الجميع تقريباً، أثيريون وغير ترابيين. كائنات هيولية تولد وتكبر بلا أجساد، بلا أعضاء جنسية، ولا حاجات، ولا غرائز، ولا أخيلة جنسية، ولا رذائل، ولا «خطايا»، ولا عادات سرية أو علنية... إلخ.

والجميع في جمهورياتنا وممالكنا العربية السعيدة، الجميع تقريباً، «غيور» على شيء ما. عدِّد معي:

هناك حزب الذين يدّعون المحافظة، «الغيورين» - في الظاهر نعم، ولكن بشراسة ما بعدها شراسة - على مفاهيم العفة والحشمة والطهارة، وعلى حماية بكارات العين والأنف والأذن والحنجرة واللغة والخيال والحلم، وإلى ما هنالك من لزوم ما لا يلزم: حمايتها من أي «اختراق» إباحي قد يمزّق غشاءاتها الرهيفة الحسّاسة، التي تصون، دون سواها، شرف تقاليدنا من الوحل و«البهدلة» و«الجرصة». لكنهم كمن يضحك على نفسه ويكنس غباراً تحت سجادة كي يشعر بالأمان، ثم يصدّق وهم تلك النظافة الكاذبة إلى حدّ أنّ الوهم يصير هو الحقيقة.

وهناك حزب الغربان، «الغيورين» على حاجتهم شبه الدائمة لنعي المبادرات الطامحة إلى تغيير مياه المستنقع، قبل ولادتها، وكل همّهم إثبات فلسفتهم الرخوة التي تنعق، بلا انقطاع، اللازمةَ إياها: «لا جدوى، فلِمَ عذاب القلب؟».

وهناك حزب المفخِّخين، «الغيورين» على اندفاعهم الحيوي والفطري إلى وضع العصيّ بين الدواليب، كي يتعثّر كل ما يقوم ويمشي بلا جميل عجائبهم عليه.

وهناك، أخيراً وليس آخراً، حزب الخبثاء، «الغيورين» أيما غيرة على توقهم العارم إلى بثّ السموم، تحت مزاعم «الحرص» على السلامة الشخصية والسمعة الحسنة، وما يقع تحت أيديهم من ذرائع أخرى قابلة للتصديق من هذا القبيل...

* * *

هل تجد تصريحاتي هذه نظريةً أكثر من اللازم؟ حسناً، سأكون أكثر صراحة ومباشرة إذاً. هكذا غالبيتنا نحن العرب:

نصفّق لصور روبرت مابلثورب ومان راي وسبنسر تونيك القائمة على عري الجسد، لكننا في المقابل نسمّي عرضها وعرض شبيهاتها من الأعمال الفوتوغرافية الفنية، لفنانين عرب وغربيين على السواء، في مجلة ثقافية عربية: بورنوغرافيا.

نهلّل لعظمة هنري ميلر وأناييس نين وفلاديمير نابوكوف، على سبيل المثال لا الحصر، ولأمثالهم من الكتّاب الذين كسروا ويكسرون التابوهات بامتياز، فنثني عليهم حتى يكاد لا يخلو حوار مع كاتب/ة عربي/ة من ذكر أحدهم ومديحه والتلويح به كتأثير أدبي حاسم؛ لكننا في المقابل نسمّي نشر قصائد أو قصص أو نصوص أو ترجمات تنتمي إلى الكتابات الأدبية الإيروتيكية في مجلة ثقافية عربية: انحلال.

نحتفي بعبقرية بيكاسو وبالتوس وكوربيه، وأسلافهم وأحفادهم، من أصحاب الشهوات التشكيلية الصارخة، احتفاءً ما بعده احتفاء، لكننا في المقابل نعتبر دراسة لوحات مماثلة، لرسامين عرب وغربيين على السواء، في مجلة ثقافية عربية، دعوة إلى إفساد القيم الأخلاقية.

نصرخ «برافو» للياباني ناجيزا أوشيما («مملكة الحواس») وللإيطالي برناردو برتولوتشي («التانغو الأخير في باريس») وللبولوني - الأميركي - الفرنسي رومان بولانسكي («بيتر مون»)، ولسواهم من السينمائيين الأجانب الذين انتهكوا وينتهكون الممنوعات بجرأة وفنية عاليتين، لكننا في المقابل نسمّي الحديث عن هذه الأفلام وسواها في مجلة ثقافية عربية: فسوق.

هكذا دواليك: الحديث عن الختان هو تابو. والحديث عن المثلية؟ تابو. وعن طقوس تشويه الذات؟ تابو. وعن تأثير العقد النفسية على الجنسانية؟ تابو. وعن العلاقة بين العين والجسد الاجتماعي؟ تابو. وعن الفيتيشية والكانيبالية؟ تابو. وعن خداع الوجوه للمرايا؟ تابو. وعن سؤال الهوية الجنسية؟ تابو. وعن الرؤية النقدية للجنس في الروايات المعاصرة؟ تابو. وعن الرغبة من منظور الأنتلجنسيا النسائية؟ تابو. وعن جسد الرجل بين التغييب والتغيّب؟ تابو. وعن لحظات النشوة لدى المتصوّفين؟ تابو.

هكذا غالبيتنا نحن العرب، ينطبق علينا المثل اللبناني الشهير: «بدّي ياه وتفو عليه». نهجس بالجنس، لكننا لا نجرؤ على التحدث عنه. ننهى عن المنكر بيد، ونمارس الدعارة الفكرية (وهي

الأدهى) باليد الثانية. أمّةٌ عربية سكيزوفرينية واحدة، متحدة، في غالبيتها الكاسحة، حول دساتير الجهل والفصام والتخلّف والخبث والتكاذب وفنون الاختباء وراء الإصبع الوسطى.

غنيّ عن القول إنّ ردود الفعل هذه لم تغظني فحسب، بل أوقدت فيَّ إحساساً بالمهانة والخجل أيضاً: خجل من بلدي وثقافتي، أو بالأحرى، توخياً للدقة والعدل، خجل مما أصبحا عليه بتأثير من التطرف الديني والأنظمة السياسية الظلامية/القمعية؛ خجل من أنني أُخضع نفسي لهذا النوع من الذل، وأقبل التعرّض لتلك الجرعات اليومية من التهديدات والقيود المفروضة على حريّتي بالتعبير، أنا المثقفة التي أعيش في هذا المكان الميؤوس منه، في هذه الفترة الميؤوس منها من التاريخ؛ خجلٌ، أيضاً، من نفاقنا ومعاييرنا المزدوجة التي ترغمني، أنا وكثيرين غيري، على النضال من أجل نيل ما يجدر به أن يكون أبسط حقوقنا كبشر.

ثم يقول لي بعض الأصدقاء: «اعتبري نفسك محظوظة، بل كوني شاكرة لأنّ مجلتك لم تتعرّض للرقابة أو الحظر». شاكرة؟! ولِمَ عساي أكون شاكرة لأمر هو حقّي وملكي شرعاً؟ لِمَ عساي أشكر أياً كان لأنه أعطاني ما كان ينبغي أن يُعتبر من المسلّمات؟ ثم من هم أولئك الأشخاص الذين يقرّرون ما يمكننا أو لا يمكننا قوله، ما يمكننا أو لا يمكننا طباعته، ما يمكننا أو لا يمكننا عرضه؟ من أو ما الذي منحهم الحقّ بالاختيار والقرار بالنيابة عنا؟ إذا لم تعجبهم المجلة، فليمتنعوا عن شرائها بكل بساطة! وأنا، بدوري، سأحترم حقّهم في رفض المجلة، لكنني أطالبهم باحترام مماثل لحقي في إصدارها. في هذا الإطار، لست أبالغ حين أقول إنّ هذه الحدود أشعرتني كأنني ألقى معاملة احتقارية وفوقية من الغير. هذا في بلدٍ، وضعُ حرية التعبير فيه متقدّم بأشواط عن وضع البلدان العربية الأخرى.

* * *

«عندما لا يسمّي المرء المرض باسمه، لن يستطيع الشفاء منه» (إيتل عدنان). في كثير من الأحيان، أتساءل: هل مثابرتي على تسمية المرض، كما يفعل كثيرون غيري، وإصراري على البقاء هنا، وعدم مغادرة هذه المنطقة المنافقة لأعيش في مكان آخر (مع الإشارة إلى أنّ الرغبة في الرحيل كانت، ولا تزال، قوية جداً في بعض الأحيان)، تحدٍّ أم استسلام؟ هل أنا منشقّة أم متواطئة في الجريمة؟ كم كانت الظروف لتكون مختلفة لو لم أكن امرأة؟ لعلّ السؤال الأهم من ذلك هو: ما هي انعكاسات كوني امرأة؟

ليس السؤال بسهل. أما الإجابة، فهي، طبعاً، حكاية أخرى.

5 امرأة عربية تعيد تعريف أنوثتها

«لن يطرأ أي تغيير على تراتبية السلطة الدائمة، ولن ينجح أيّ نضال في تحرير المرأة ودمجها في مجالات العمل والتربية والكفاح، من دون دخولها، بملء إرادتها، في مختلف الميادين الناشطة».

خالدة سعيد
أكاديمية، ناقدة ومفكّرة سورية (1932-)

سأكون صريحةً وأمسك بالثور من قرنيه منذ البدء:

أنا، بكل تأكيد، امرأةٌ من نوع ما يُسمّونه «أخت الرجال»، لكن لا أتمنى أن يكون لي قضيب، ولا أحلم يوماً بأن أكون رجلاً؛

أنا امرأة لها مسيرة مهنية محترمة وراتب مغرٍ، لكن أكره أن أتقاسم فاتورة الطعام مع رجل يصحبني لموعد عشاء؛

أنا امرأة متحرّرة تعمل بلا كلل، لكنني أتمتع بجلسة تدليك وعناية بالوجه تماماً كما أتمتع بنجاح أحد مشاريعي؛

أنا امرأة مثقفة، لكنّ وزني وتجاعيدي تقلقني بقدر ما يفعل تلكّئي في قراءة رواية كونديرا الأخيرة؛

لستُ سطحية، ولكنّ امرأة ذات شعر مشبع بالزيت، أو ثياب غير مرتّبة، تتساوى عندي مع أخرى تحقن شفتيها/خديها/نهديها بالسيليكون أو بأي مادة أخرى يتداولونها في هذه الأيام؛

لا أعدّ نفسي سطحية، ولكنّ رجلاً ذا أظفار قذرة، أو رائحة نفس كريهة، يتساوى عندي مع آخر ذي نسبة متدنية من الذكاء، أو بدون حسّ فكاهة، أو مصاب بآفة الادّعاء والتظاهر؛

أنا امرأة تبادر، لكنني أفقد «انتصابي» أمام رجل جبان، ضعيف الشخصية، بالسرعة نفسها التي أفقده بها (بشكل نهائي ولا رجوع عنه) أمام رجل كهف يحسب أنّ شعيرات صدره، واستعراض سياراته السريعة البرّاقة، والتصرف بطريقة حقيرة وخرقاء، دلائل دامغة على رجولته.

باختصار، أنا متعصّبة للأنوثة. ما الذي تعنيه الأنوثة بالضبط؟ هذا، في طبيعة الحال، سؤالٌ معقّد. لكن إذا كنتُ لأشرح الأمر بصرياً وبأسلوب أكثر مباشرةً، لو كنت لأختار شيئاً يجسّد تماماً، وبأكثر الطرق بساطةً وفاعليةً، رؤيتي عن المرأة والأنوثة، لاخترتُ واجهة بوتيك «سونيا ريكييل» في حيّ سان جيرمان الباريسي: أثواب في قمة الأناقة والذوق والغواية والحداثة، تتجاور مع كتب مختارة وإصدارات جديدة لروائيين ومفكّرين وشعراء وفلاسفة.

قوت للقالب وقوت للقلب.

الموضة والثقافة، الجمال الخارجي وذاك الداخلي، يتآخيان هناك تآخياً يشبه التآخي بين الجسد والجسد، العاشقين المعشوقين.

لا أحد يتعجب من هذا الاجتماع البديهي بين العناية بالخارج والعناية بالداخل إلاّ نحن العرب. لماذا؟ لأنّ مَن يهتم بالشكل تافه حكماً في عرف مثقفينا. ومَن يهتم بالثقافة مهمِلٌ لشكله حكماً في عرف أهل الأناقة والجمال عندنا. يا لهذا التسطيح السخيف والبائد!

فكرة المعسكرَين، معسكر الجميلين من جهة ومعسكر الأذكياء من جهة ثانية، هي فخ، وفخ عنيد، على رغم كل الأدلة المضادة على هذا التقسيم في أيامنا. ينبغي أن نطلب الكتب، ولو في محال الثياب. وأن نطلب الأناقة، ولو في المكتبات.

هنا ضرورة، وهناك ضرورة. هنا توق، وهناك توق. هنا جوع، وهناك جوع. هنا لذة، وهناك لذة. وخصوصاً في ما يتعلق بالمرأة.

فهل ثمة ما هو أجمل من أن تكون المرأة امرأةً، وتظل كذلك؟

لا أعتقد أنّ ثمة ما هو أجمل.

بل أراني أقول إنّ أسوأ ما يمكن أن تتعرّض له المرأة، في غمرة الحروب والكفاحات التي تخوضها لانتزاع حقوقها، وفرض احترامها، وتأكيد جدارتها في المجالات المهنية كافة، وتثبيت مكانتها في المجتمعات، وخصوصاً المجتمعات في بلدان العالم الثالث، أن تتناسى كونها امرأة، فتخسر المرأة التي فيها، والتي هي إياها.

لماذا أقول ما أقول، وماذا يعني أن تكون المرأة امرأة؟

أقول ذلك لأن بعض العربيات (والأجنبيات أيضاً) يعتقدن، في غمرة نضالهن النسوي وانشغالهن الكفاحي بالمساواة، أنّ ذلك يفرض التخلي عن شيء ما، هو أنوثتهنّ، من أجل الحصول على شيء آخر، يسمّى المساواة. وهذا في رأيي هو الخطأ المميت الثاني الذي ارتكبته الموجة الأولى من حركات التيار النسوي، من بعد خطئها الفادح الأول، ألا وهو تحويل الرجل شيطاناً أكبر، وعدوّاً مبدئياً للمرأة.

في هذا السياق، أقول: تبّاً للهاث وراء مساواة مفخخة كهذه، إذا كانت تستلزم التخلي عن «سر» المرأة وجوهرها. فماذا ينفعني لو ربحت العالم كله وخسرت أن أكون امرأة، أو أن أُعامَل على هذا الأساس؟

لست في حاجة إلى التشبّه بالرجال كي أكون امرأة قوية. ولا داعي كذلك لأكون خصماً للرجل كي أصبح حليفة للمرأة. بالإضافة إلى ذلك، أوليس نزع صفة الأنوثة عن المرأة استسلاماً، وبامتياز ، لابتزاز الرجال وآرائهم السطحية في شأن المرأة، بصفتها مجموعة أفخاذ، وحلمات، ومؤخّرات، وشفاه وهكذا دواليك؟

مجدداً أسأل: ماذا يعني أن تكون المرأة امرأة؟

لا يمكن اختصار المرأة، طبعاً، بعناصر تافهة مثل ارتداء التنانير، أو استخدام الماكياج، أو امتلاك شعر طويل. أن تكون المرأة امرأة لا يعني تحويل جسدها إلى سلعة بخسة أو لحم رخيص. في الواقع، وعلى رغم إيماني الراسخ بأنّ كل شخص حرّ في التصرف بجسده وفق ما يحلو له، أعتقد أن نموذج الأنثى التي تعامل جسدها كلحم رخيص لا يقلّ إذلالاً وإهانة عن نموذج المرأة المحجّبة. فكلاهما يمحو الكيان الحقيقي للمرأة، الكيان الذي يتجاوز حدّ معاملة جسدها كسلعة أو غواية لا بدّ من إزالتها بممحاة سوداء.

أن تكون المرأة امرأة يعني إذاً أن تكون ذاتها، لا أي ذات أخرى. ولا خصوصاً ذات الرجل - الأب أو الرجل - الزوج أو الرجل - الحبيب أو الرجل - الأخ والابن، وهلمّ جراً.

أن تحيا المرأة هذه الذات، ذاتها الشخصية، بجوارحها، وباللاوعي، وبالجسد، وبالعقل. وبدون خوف، أو هلع، أو حذر، أو محظور، أو خجل، أو سوى ذلك من روادع داخلية واجتماعية، ظاهرة وباطنة.

وأن تحيا المرأة ما تحياه، وصولاً إلى كل شيء، وتحقيقاً لكل شيء، بدون أن تتملكها هواجس «اعتراف» الرجل بها، وبنجاحها، أو الفشل. أن تأخذ، بدل انتظار أن تُعطى.

أن تكون المرأة هي خبرة ذاتها، ومرجعية هذه الذات. لأن لا خبرة لتُختبَر خارجاً، ولا مرجعية سواها، لتعود إليها.

هي المرأة مرجعية جسدها، وروحها، وكينونتها. ولا قرار لأحد آخر في هذه المسألة: لا متطرّفي الدين الذين يريدون إلغاءها، ولا متطرّفي السطحية الذين يريدون تحويلها غرضاً وراء واجهة. وإذا كان على المرأة أن تتساوى بشيء، أو بأحد، فعليها أن تتساوى بهذه الكينونة. آنذاك، تتحقق مساواتها مع وجودها الكائن. وهذا هو شرط المساواة الوحيد.

ثم إن مساواتي مع الرجل لهي من المسلّمات والبديهيات في نظري. وليست هبة من أحد لكي أتسوّلها وأطالب بها.

لا شكّ في أنني، كامرأة، أحتاج إلى الرجل. وهي حاجةٌ أحبّها، وأقبلها لا بل أحتضنها وأرعاها وأفتخر بها. وأنا أدرك، كامرأة، أنّ الرجل يحتاج إليَّ أيضاً. وهي حاجةٌ أحبّها، وأقبلها لا بل أحتضنها وأرعاها وأفتخر بها كذلك. لكنّ الفرق هائل بين الحاجة إلى الآخر والاتكال عليه، درجة أن تصبحي مجرّد تابع له أو ملحق به. فالموقف الأول يقوم على ثقة الشخص بنفسه وبعلاقته مع الآخر، فيما الموقف الثاني لا يستند إلا إلى قدرٍ متدنٍّ من الثقة بالنفس. في رأيي المتواضع، يترافق كلا الجنسين البشريين معاً، يداً بيد، شريكَين متواطئين ومتساويين، فيتحدّيان ويحفّزان ويدعمان واحدهما الآخر، لكنهما يظلان على رغم ذلك مختلفَين على نحوٍ رائع. أما إذا كان لا بدّ للمرأة من أن تصبح متساوية مع شيء أو أحد، فلتتساوَ إذاً مع هويتها كأنثى فقط لا غير. عندها، ستكون متساوية مع كيانها الجوهري، هذا الكيان الذي يختبر تحوّلاً مستمراً. أما ما دون هذين المد والجزر المستمرّين بينها وبينها، أو ما فوقهما، أو خارجهما، ففراغ في فراغ: «الحياة عملية تحوّلية، مجموعة من

الحالات التي ينبغي أن نمرّ بها. يفشل الناس عندما يرغبون في اختيار حالة والبقاء عليها. ذلك شكل من أشكال الموت» (أناييس نين).

* * *

في هذا الإطار، أذكر جيداً رد فعلي يوم رأيت صورة وزيرة الدفاع الإسبانية كارمن شاكون، تتفقد جنوداً من كتيبة بلادها في بلدة بلاط في الجنوب اللبناني وهي حامل في شهرها السابع، في ربيع 2008. نادراً ما رأيتُ في حياتي جمالاً كجمال هذا المنظر: سيّدة تستعرض «جيشها» بملء عنفوان أنوثتها. هي امرأة. امرأة شابة. امرأة شابة حامل. امرأة شابة حامل تتولى منصب وزيرة في بلادها. ليست وزيرة للشؤون الاجتماعية. ولا وزيرة للصحة. ولا حتى وزيرة للخارجية. لا. بل هي تحمل إحدى أشد الحقائب «فحولة»: حقيبة وزارة الدفاع. منظر يختصر، في لقطة واحدة معبّرة، جوهر ما أؤمن به: فحولة الأنوثة. جبروت ليليت. ليليت، المرأة الأولى، تلك التي وُجدت قبل حواء بزمن طويل، وجُبلت من التراب تماماً كآدم. ليليت، المرأة المستقلة، المتحرّرة، التي رفضت طاعة الرجل طاعةً عمياء، وغادرت الجنة بملء إرادتها. ليليت، المرأة الثائرة التي ليست حوّاء، تلك المنتزعة من ضلع آدم، إلا نسخةً باهتة عنها.

طبعاً، لا يعني كلامي البتة أنني أدعم المرأة في السياسة على نحو أعمى. بل على العكس تماماً.

فغالباً ما تطرح عليَّ النساء مثلاً أسئلةً من نوع: «لا شك في أنكِ كنت تساندين سيغولين رويال في الانتخابات الفرنسية، وهيلاري كلينتون في الأميركية، أليس كذلك؟». فأجيب بـ «وقاحة» مَن حسمت أمرها عن اقتناع: «لا». السيدة التي تطرح السؤال تستهول الجواب، وتكاد عيناها تقفزان من محجريهما لدى سماعها تلك الـ «لا»: «لكن كيف؟ كيف يمكن ألاّ تكوني في صفّيهما؟!».

فلأوضح الأمر: طارحةُ السؤال تلك، إذا كانت تستهول وتستنكر، فليس لأنها معنية بالسياسة الفرنسية أو الأميركية بالضرورة، أو بانعكاساتهما على الوضع اللبناني؛ لا بل إنها تستفظع موقفي هذا لأجل سبب واحد فقط، هو أنّ سيغولين رويال، ومثلها هيلاري كلينتون، من جنس النساء! نعم، إذ يكفي المرشّحة، في رأي الكثيرات من المناضلات النسويات، أن تكون امرأة كي يكون ذلك مبرراً قاطعاً لتشجيعها ودعمها من عدد كبير من النساء. أما أنا، خائنة بنات جنسي، فامتلاك فرج لا يكفي لإقناعي بمؤهلات مرشحة ما، كما إنني لم (ولن) أتعلم أسرار التضامن النسائي الأعمى؛ لا بل إنّ جملة «يا نساء العالم اتحدن» تصيبني بالقشعريرة، فأشعر برغبة ملحة في أن تنشقّ الأرض وتبتلعني عندما أسمعها.

طبعاً، كنت لأحبّ أن تكون سيغولين رويال، صاحبة الطلة الأنيقة والخطاب الإنساني، أهلاً لرئاسة فرنسا. وكنت لأحبّ أن تصل هيلاري كلينتون، تلك المرأة ذات الصلابة الحديدية، إلى سدة الرئاسة في أميركا. إذا لم يكن لسبب، فعلى الأقل لكي «تنتقما» من كل النساء اللواتي وصلن إلى سدّة الحكم على حساب أنوثتهنّ، أو، على العكس من ذلك، بلا أي مؤهلات سوى مؤهلات شكلهنّ الخارجي. لكن المنصب الرئاسي يستحق، في رأيي الشخصي على الأقل، مرشحات أعلى كعباً وأشدّ مراساً وأكثر عمقاً من رويال وكلينتون، وذلك لأسباب لا تتعلق البتة بكونهما امرأتين. فهل ينبغي لي أن أدعمهما معنوياً، لا لشيء سوى لأننا نحن الثلاث نرتدي حمّالات صدر قبل الخروج من المنزل كل صباح؟

لا وألف لا لهذا النوع السطحي من التواطؤ والتكاتف. المرأة تستحق أفضل. وأكثر. وأعمق.

* * *

في الحديث عن التواطؤ النسائي العظيم، يحلو لي أن أورد هنا هذا الخبر «المأسوي»: صار عندنا في لبنان خدمة تاكسي خاصة بالنساء اللواتي لا يحبّذن الاختلاط بالرجال، وبات ينبغي لنا نحن المنتميات إلى الجنس الذي يُزعَم أنه «لطيف»، أن نبتهج ونهلّل ونبارك، ونقول: «واو»!

لونه زهريّ أيضاً! وشكله ظريف! وتقوده امرأة: كم هو أوريجينال!

لكن، مهلاً: عن أي أوريجينالية تتكلم النساء المبتهجات بهذه البدعة؟ فتاكسي البنات هذا هو في اختصار مدعاة للخجل لي أنا كامرأة لبنانية. وكامرأة عربية. وكامرأة عموماً.

منذ متى، أصبح التاكسي مكاناً تُدبّر فيه لقاءات «خطيرة»، ذات دلالة إيروتيكية - أخلاقية؟ منذ متى عدنا - أو صرنا - نخضع في لبنان («سويسرا الشرق الأوسط والأكثر غربيةً بين البلدان العربية»، كما يصفونه)، لمعايير «الفصل» بين النساء والرجال؟ لم نصدّق أننا تخلّصنا أخيراً، أو تخلّصنا تقريباً، من مدارس البنات ومدارس الصبيان، وسواها من العادات التي تخرّج نساءً ورجالاً مجبولين بالعقد والكبت والجهل والخوف من الجنس الآخر.

في الأمس القريب، شهدنا على جيل باربي (ولم نتخطّ ذلك بعد)، واليوم جيل تاكسي البنات على ما يبدو. قد يبدوان جيلين متناقضين، لكنهما، في الواقع، يتشابهان ويلتقيان. يكفي أنّ الاثنين يجسّدان، كلٌّ على طريقته، سلوكاً تربوياً منمّطاً في العالم العربي، يزعجني منذ الصغر. فما إن ترى فتاةٌ النور حتى يحيطها الأهل والأقارب بالدمى من كل نوع ولون: هذه كي تمضي النهار بصحبتها، وتلك كي تغمرها خلال النوم، وهاتيك كي تشرب معها الشاي، ورابعة كي تتنزه برفقتها، وخامسة كي تجهّز حفل زفافها، وهلمّ جراً (فما قيمة الفتاة العربية الصغيرة إذا لم تنغمس في التحضير لزفافها كي يكون أفضل حفل على الإطلاق؟ ما معنى لحياتها إذا كانت مجرّدة من حلم كهذا؟).

في المقابل، ما إن يرى فتىً النور حتى يحشد الأهل من حوله أدوات الذكورة المفترضة: سيارات من كل نوع ولون، جيوش ومدافع ومسدّسات وسيوف. نادرون هم الأهل، حتى في يومنا هذا، الذين يتمردون على هذا الكليشيه، ولا يقعون في فخّه. أنّى ذهبنا، اللون الزهري للبنات، والأزرق للصبيان. هي رقيقة مسالمة حالمة ومطيعة (مطيعة خصوصاً)، أما هو فخشن مقاتل واقعي وخارج على القانون.

شخصياً، لم أُطق الدمى في حياتي قطّ. لم تنجح دميةٌ واحدة، لا باربي ولا أخواتها، في إغرائي. لستُ ضدّ باربي بالضرورة، لكني ضدّ أن تُختصَر صورة المرأة في لعبة «مسطّحة» ومضجرة ومتوقَّعة كهذه، وضدّ أن تُختصَر صورة الرجل في مسدّس، مثلاً. ليس للمرأة قالب جاهز لكي نصنّع أنفسنا وبناتنا وفق آلياته. كما ليس للرجل نموذج جاهز، هو الآخر، لكي نسير على هديه. لم أقع يوماً - ولا حتى بفطرتي، أي في مرحلة ما قبل المعرفة والقرار الواعي - في «مصيدة» الأنوثة النمطية، هذه التي يتوهّم المجتمع أنها تحدّد شخصيتنا وسلوكنا وأفكارنا.

أنثى نعم، بل أنثى بالتأكيد. وكثيراً. وجداً. وعميقاً. وباعتزاز. وحتى الثمالة. لكن بربّكم، أبعِدوا هذا اللون الزهري، وكل الكليشيهات المرتبطة به! أذكر في أحد الأيام أنني تخاصمت مع عمّ لي تجرّأ وأهدى إليَّ في عيد ميلادي مطبخاً مصغّراً وآلة غسيل ومكواة إلخ. شعرتُ يومذاك بالمهانة، على رغم أنني كنتُ لا أزال في الثامنة من عمري. لا أقول ذلك لأنني أكره الطهو والغسل والكي أو سائر الأعمال المنزلية الأخرى عموماً، بل على العكس تماماً. فأنا أكنّ احتراماً وتقديراً كبيرين للنساء

اللواتي يخصّصنَ وقتهنّ للعناية بأسرهنّ على هذا النحو (والدتي هي إحدى هؤلاء النساء وأنا أدين لها بالكثير على ذلك الصعيد). فضلاً عن ذلك، لا أعتبر أنّ النساء صاحبات المسيرة المهنية المميّزة يمثّلن النموذج الوحيد للمرأة الناجحة، المتحررة والمؤثّرة. ما أتكلّم عنه هو الحقّ في الاختيار. وفي هذا الاختيار يكمن كل الفرق بين امرأة خاضعة وأخرى حرة. إنني أؤيّد كل التأييد المرأة التي تطهو إذا كان الطهو نابعاً من رغبتها وقرارها الخاص. لكنني ضد المرأة التي تطهو إذا كان الطهو متوقعاً منها ومفروضاً عليها، لا لشيء إلا لكونها امرأة.

يومذاك، أراد لي عمّي، في شكل لاواعٍ، أن أتماهى مع نموذج المرأة كما يمليه علينا المجتمع الأبوي البطريركي: النموذج النسائي الذي يطهو ويغسل ويكوي، فقط... ينتظر عودة الرجل، ربّ البيت، عودته من التفكير، من العمل، من الحرب، من السياسة، ومن رهانات الحياة الأخرى.

لا أقصد أن ألقي بالمسؤولية كلها على كاهل الرجال. فنحن نتحمّل عبئاً كبيراً من تلك المسؤولية أيضاً. حريّ بنا، فقط، أن نرفض أن نكون من أولئك النساء اللواتي «ينتظرنَ»، سواء انتظار مناسبة أو فرصة أو حتى رجل. يجب أن ننهض، نمضي قدماً، نمدّ أيدينا نحو ما نريد أخذه، ونأخذه فعلاً. أو في الأقل، أن نحاول.

* * *

«لا أحارب الرجال ولكنني أحارب النظام الذي يميّز بين الرجال والنساء» (إلفريده يلينيك). أذكر أنه منذ حوالى خمس عشرة سنة، عندما صدر كتاب جون غراي الشهير، الرجال من المريخ والنساء من الزهرة ، أحدث هذا العمل ضجة كبيرة على المستوى الشعبي وحصد نجاحاً لا مثيل له، لا في مسقط رأسه الأميركي فحسب، بل في العالم بأجمعه أيضاً، بما فيه العالم العربي، حيث اعتبره كثيرون بمثابة «الكتاب المقدّس» للعلاقات بين الرجل والمرأة، والحلّ المطلق لكل مآزق الارتباطات العاطفية والزوجية. أعترفُ أنني، على رغم عشريناتي الطريّة يومذاك، قرأتُ هذا الدليل المزعوم إلى «تحسين التواصل بين الشريكين» من دون أن تفارق ابتسامةٌ تهكّمية وجهي، لا سيما وأنا أتابع الوصفات العجائبية المقترَحة، تلك التي لا تتنافس بساطتها الخطرة إلا مع كليشيهاتها المبتذلة.

كنتُ أظنّ أنني لن أجد يوماً عملاً مكتوباً قادراً على التفوّق على هذا المنتَج الأميركي البحت، من حيث سذاجة الرؤية إلى العلاقة بين الجنسين، ووفرة الأحكام المسبقة، وتفاهة الأجوبة الجاهزة، وسخافة النصائح «الحسنة النيّة»، حتى قرأتُ من بعده كتاباً بعنوان هل الرجال ضروريون؟ للأميركية مورين داود، الكاتبة اللاذعة في «نيويورك تايمز» ، فعرفتُ حينذاك أنني خسرتُ الرهان مع نفسي. فبقدر ما يتضمّن كتاب غراي من تعميمات مضحكة حول طريقة معالجة «سوء الفهم التاريخي» بين الرجل والمرأة (وهي نظرية مفرطة التبسيط، توازي، وإن على مستوى مختلف، تبسيط نظرية «صراع الحضارات» لهنتنغتون)، يحوي كتاب داود كميّة أكبر من الشعارات السطحية والأمثلة المزعومة ذات الطابع البروباغاندي المغرِض، التي، بعد أن يتخلص المرء من وقعها الكلوستروفوبي، سيدرك حتماً أنها لا تسعى إلى خدمة قضية المرأة بقدر ما تسعى إلى تحطيم صورة الرجل من طريق الاستفزاز المفتعل وغسل الأدمغة.

تسأل مورين داود: «هل الرجال ضروريون؟». فتجيبها إحدى الزميلات الصحافيات العربيات: «بالطبع لا!»، مقدّمة، كبرهان على وجهة نظرها، خبراً نُشر يومذاك مفاده أنّ فريقاً من العلماء الأميركيين نجح في استخراج منيّ اصطناعي من النخاع العظمي لامرأة؛ أي بات في إمكان المرأة،

تالياً، أن تستخرج منيّاً من عظمها وأن تلقّح بويضتها، أو بويضة امرأة ثانية، وأن تكفي نفسها بنفسها وأن تُنجب، بلا «جميل» الرجل.

هلّلت زميلتي اللبيبة لهذا الاختراع، واعتبرته «انتقاماً» مستحقاً للمرأة إزاء كل ما لحق ويلحق بها من ضيم وظلم وإجحاف. لكن لم يخطر للصحافية العزيزة أنّ حاجة المرأة إلى الرجل لا تقتصر على نطفته المخصّبة. ولا أدركت، لا هي ولا سواها من النساء العربيات اللواتي يسارعن إلى إلقاء اللوم على الرجل وتحميله مسؤولية كل مصائبهن، أنّ المرأة نفسها تتحمّل، في بعض الأحيان، مسؤولية الضيم والظلم والإجحاف الذي تواجهه. كيف لا وتراها تستسلم فتكاد لا تبذل أيّ جهد لتغيير الوضع السوداوي الذي تجد نفسها فيه؟ وتكتفي، عوضاً من ذلك، بمجرّد التذمّر وإطلاق الشكاوى.

في طبيعة الحال، لست أعمّم، ولا أنا قاسية وعديمة الإحساس وظالمة تجاه بنات جنسي. أدرك تماماً مقدار الأهوال والفظائع التي تُرتكَب يومياً في حقّ النساء في بقاع متطرّفة من العالم العربي والإسلامي. لعلّ أفظع هذه الممارسات في رأيي هي تلك التي يجرؤون على تسميتها «جرائم الشرف»، حيث تلوّث المرأة شرف عائلتها، بنحو لا رجوع عنه، اذا ما مارست الجنس قبل الزواج، أو «تسبّبت» باغتصابها (نعم، عندنا المرأة تتسبّب باغتصابها)، أو طلبت الطلاق، أو هربت مع رجل لا توافق عليه أسرتها وتزوّجته. نتيجةً لذلك، يصبح الرجال «المسؤولون» عنها هم الضحايا - فشرفهم قد تعرّض للتدنيس والتشويه - ويصبح قتلها بالتالي نوعاً من الدفاع عن النفس. إحدى هذه الحالات هي حالة كفاية حسين، فتاة أردنية في السادسة عشرة من عمرها، جَلَدها شقيقها البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، قبل أن يقدم على نحرها. أما جريمتها، فتعرّضها للاغتصاب على يد شقيقها الآخر.

فضلاً عن ذلك، حدِّث ولا حرج عن جريمة الختان، وما ترمي إليه من أهداف خبيثة كحرمان النساء من حقهنّ في المتعة والنشوة. ولا ننسى أيضاً ظاهرة الزيجات المدبّرة بين رجال وفتيات صغيرات بالكاد يستطعن أن يلعبن لعبة «بيت بيوت». وتمتدّ قائمة هذه الأهوال إلى ما لا نهاية.

لكن يستفزني أن يكون رد الفعل الوحيد لدى الكثيرات من النساء العربيات الشكوى من معاناتهن، عوضاً من محاولة التوصّل إلى حل أو بصيص أمل، مهما كان خافتاً، يضفي لمسةً مشرقة على حياتهنّ اليومية. «عندما تتوافر الإرادة، تتوفّر الوسيلة». ليست هذه مجرّد عبارة منمّقة أو كلمات صُفّت بعناية... بل أكثر من ذلك بكثير.

* * *

ثم من قال إنّ الرجل هو حقاً العدو الأشرس للمرأة؟ غالباً ما صادفت في حياتي نساءً يكرهن النساء ويحاربنهنّ بطريقة أعنف من الرجال بأشواط - الأمهات اللواتي يلتزمن الصمت أمام والد يغتصب أولاده؛ الأمهات المتلهفات على تزويج بناتهنّ وهنّ بعد في الثالثة عشرة من عمرهنّ؛ واللواتي يتركن بناتهنّ من دون تعليم لأنهنّ «سيتزوّجن في كل حال، فلِمَ نكلّف أنفسنا عناء تعليمهنّ؟»؛ واللواتي يربّين أبناءهنّ على أن يكونوا أكثر تمييزاً تجاه النساء واستخفافاً بهنّ من آبائهنّ.

لست في صدد إصدار تعميمات ديموغرافية حول مواقف الرجال والنساء، وهو تعميم أرفضه، وفرز «طوباوي» ساذج لست مقتنعة به أصلاً. ولكن بين النقد الذاتي الضروري وكره الذات

المَرَضي فرقٌ تعيه قلّة من الناس. فحتّامَ تظل المرأة، إما عدوة مقدّرة سلفاً للرجل، وإما حليفة عمياء للمرأة للأسباب الخاطئة وغير المقنعة؟

لأجل ذلك أسمح لنفسي، بعيداً من صاحبات النزعة النسوية الهستيرية، والعدد الكبير من النساء اللامباليات أو الخاضعات طوعاً، بأن أعلن حقوقاً بديهية كثيرة، يتمّ تجاهلها في معظم الأحيان:

حقّ المرأة في أن تكون مع الأنوثة القوية والذكية والحرّة ضد النسوية الهجومية والعمياء والمرهونة لشعارات فارغة.

حقّها في ألاّ تعتبر علاقتها بالرجل حرباً بالضرورة، من دون أن تُفسَّر سلميتها على أنها رضوخ.

حقّها في أن تكون مساوية للرجل من دون أن يغريها خطاب الهيمنة عليه.

حقّها في أن تفرح بباقة ورد حتى وإن كانت تقود الجرّافات وتغيّر زيت المحرّكات وتدفع فاتورة المطعم أحياناً.

وأيضاً، وخصوصاً، حقها في عدم انجرافها وراء وهم الانقلابات الجماعية، بل الإيمان بالإنجازات الفردية، بالمعارك الصغيرة، بالخاص الذي يتضمّن الشامل، وبأهمية أن تعتني كلّ امرأة بفسحتها الخاصة.

* * *

«يجب أن نكون حازمين في اتخاذ خياراتنا وتحديد رغباتنا كي نكون موجودين. الحلول الوسطى تؤدّي إلى الدمار الذاتي» (جميلة بو حيرد). عود على بدء: يجب أن تكون مساواة المرأة مع الرجل خارج حلقة الطلب والكفاح والمساومة. فمطالبة المرأة بهذه المساواة هي، بالذات، ما يحول دون وصولها إليها أحياناً. فصاحب الطلب يضع نفسه سلفاً في موقع ضعف. لتعتبر هذه المساواة إذاً من البديهيات، ولتتصرّف كأنها من المسلّمات (هي حقاً كذلك)، بدلاً من الدوران في حلقة مفرغة، المرجع فيها هو الرجل «المانح»، والقرار الأخير فيها للمعيارية الذكورية. أعرف طبعاً أنّ هذا الأمر ليس ممكناً في جميع الظروف، لا سيما عندما تسود أطر قانونية تمييزية، لكن يمكن مراعاته في التفاصيل الصغيرة جداً من الحياة اليومية. وهذه التفاصيل هي التي تستطيع أن تحدث فرقاً، لا بل في إمكانها، على المدى الطويل، أن تخلّف تأثيرها حتى في القوانين والدساتير.

المطلوب، خصوصاً في العالم العربي، أن تذهب المرأة بعيداً، وإلى لا رجوع، في التنقيب عن ذاتها وبلورة حياتها، من دون أن تنتظر شيئاً من أحد، أو تكون مرآةً تنعكس فيها الصورة التي يعتقد الرجل أنها الأصل. قضيتها الحقيقية هي أن تستعيد ذاتها المسروقة، وتحقق المساواة معها. وهي مسألة تطاول الإنسان ككل، مهما يكن جنسه، ولأي بلدٍ انتمى. وتطاول، خصوصاً، إنسان العالم العربي. ولا ريب في أنّ استعادة هذه الذات المجهولة، المرتهنة، المرمية تحت الطلاسم والتعاويذ والتابوهات والرقابات، وتحت أشكال الرعب والتخويف، هي الحرب الأصعب التي يجب أن يخوضها الإنسان ويربحها، امرأة ورجلاً على السواء. ولا مفرّ!

أما المكاسب الهيّنة، المهينة، التي تُمنَح للمرأة جائزة ترضية، أو بنجاً، أو رشوةً، فهي جميعها، تقريباً، مفخخة بالشروط والتنازلات، وحريّ بنا ألاّ نوافق عليها.

فإما الكل، أعني كل شيء، أي الذات كلّها، بلا «جميل» أحد سوى هذه الذات، وإما لا شيء. نحن في حاجة إلى كسب معاركنا (أو خسارتها في طبيعة الحال) بأنفسنا، بدون شروط أو تعديلات أو صفقات أو تسويات تطال أنوثتنا. هذه هي، في رأيي، الأنوثة العربية الجديدة، لا بل الأنوثة العالمية

الجديدة التي نحن في حاجة إليها اليوم: أنوثة لا تخيفها حقيقتها. لا تخيفها قوّتها. لا هشاشتها وطمعها. لا ضعفها وشراستها. لا نعومتها. أنوثة لا تخيفها خساراتها. فضولها. لا صدقها ولا جنونها ولا أخطاؤها. أنوثة لا تخيفها مواهبها. جمالها. لغتها. سلطتها. تطرّفها. لا تخيفها تجاربها أو تناقضاتها أو شبابها. ولا نضجها وتخمّرها.

باختصار، أنوثة لا تخيفها أنوثتها الخاصة.

لا أدّعي، بكل تأكيد، أنني نموذج ينبغي الاحتذاء به. ولا أزعم أنني رائدة في أي شيء. ولا أقول إنني أملك الأجوبة كلها، على الإطلاق. فالحقيقة هي العكس تماماً: لست إلا وليدة أخطائي وزلاتي وأسئلتي وشكوكي... وطبعاً أحلامي.

في الحديث عن الشكوك، آن أوان فتحي الصفحة الأولى من قصة أخرى، لأتلو عليك حكاية جديدة. حكايتي مع تنّين برؤوس متعدّدة، كليّ القوّة، ويُنذر بخطر محدق.

يطلقون عليه اسماً غريباً:

«الله».

6 امرأة عربية لا تخاف استفزاز الله

«سأكفّ عن المطالبة بحقوق المرأة السعودية حين أرى رجالاً سعوديين بالغين يجرجرون إلى مراكز الشرطة حين يقودون سيارتهم، وحين ترتدي المرأة السعودية ملابس بيضاء مريحة، بينما يُجبر الرجل السعودي على لبس وشاح أسود، وقفّازات سوداء، ورداء أسود، يحوّله إلى كتلة سوداء؛ وحين يُقال له إنّ له مكانين في هذه الدنيا: البيت والقبر».

وجيهة الحويدر
كاتبة سعودية وناشطة في مجال حقوق الإنسان (1957-)

«لو كنتِ امرأة مسلمة، لما تمكّنتِ قط من كتابة ما كتبته».
«لو كنتِ امرأة مسلمة، لما كنتِ قد أطلقتِ البتة مشروعاً مثيراً للجدل مثل مجلة ''جسد''».

«لو كنتِ امرأة مسلمة، لما كنت قد عبّرتِ عن رأيك كما تفعلين أو عشتِ كما تعيشين أو حتى تصرّفتِ كما تمليه عليه نفسك».

لكلّ العقول الشكّاكة والمجحفة والضيّقة الأفق في الغرب التي لا تنفكّ تردّد هذه التعليقات المتسرّعة على مسامعي، أقول: كان يجب أن ترتادوا إحدى مدارس الراهبات لأربع عشرة سنة متواصلة، قبل أن تسمحوا لأنفسكم بالتعبير عن هذه التوكيدات (الخاطئة). كان يجب أن تنحدروا من أبوين عربيين مسيحيين محافظين، وتعيشوا ضمن مجتمع عربي مسيحي محافظ، قبل أن تسمحوا لأنفسكم بالتلفّظ بمثل هذه الآراء (المنحازة). كان يجب أن تختبروا تمييز الكنيسة ضد جنس النساء، وتشهدوا عن كثب على الأصولية المسيحية التي لا تقل شأناً عن الأصولية الإسلامية، كما كان يجب أن تقرأوا كلمات القديس بولس عن المرأة، قبل أن تسمحوا لأنفسكم بإعلان مثل هذه التصريحات (غير السليمة).

* * *

«لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكن لست آذن للمرأة أن تعلّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأنّ آدم جُبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي. ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، 2: 11-15).

فهل من فرق حقاً بين أن تكون المرأة مسلمةً أو مسيحية في العالم العربي اليوم؟

هل حياة المسيحيات «أسهل» فعلاً؟

هل صحيح (وعادل) أن نفترض أنّ المسيحية تجسيد للحبّ والسماح وتقبّل الآخر، فيما الإسلام مثال التعصّب الأعمى والشرّ وقتل الأبرياء؟

ليس إذا كنتَ متديناً على نحو أعمى. ليس إذا كنت طائفياً بعنف. ليس إذا كنتَ تلتزم حرفياً أحكام دينك، مهما كان هذا الدين، وتسلّم أمرك ورأيك وقدرتك على الحكم والتفكير إلى جهة تزعم أنها «أعلى» منك، فتصدّق بسذاجة كل كلمة تتلّفظ بها كبار الشخصيات الدينية في طائفتك، وتكيّف حياتك، ورؤياك، وأعمالك لتلك الحلقة المفرغة من القوانين والوصايا (التي تبلغ في بعض الأحيان حدوداً غير معقولة)، تلك القوانين والوصايا التي كان شخصٌ آخر قد فكّر فيها بالنيابة عنك، وقرّر أنها تناسبك وتمنحك بطاقة غير مشروطة لـ «الدخول إلى الجنة».

«هل الإنسان أحد أخطاء الله الفادحة؟ أم أنّ الله أحد أخطاء الإنسان الفادحة؟» (فريدريك نيتشه).

هاكم رأيي في الموضوع: مع كلّ احترامي للأشخاص الذين يؤمنون بالحكايات الخرافية (ويحتاجون إليها)، ماذا تكون الجنة إلا وهماً رائعاً ابتدعته عقول مجموعة من العباقرة (يُعرفون تارةً بالأنبياء وتارةً أخرى بالقديسين والمتصوّفين، تبعاً للبيئة الثقافية والاجتماعية)، بهدف التحكّم بالجماهير الشعبية، راسمين لهم في المقابل مكافأة لن يتمكّنوا أبداً من منحهم إياها؟ أو على الأقل مكافأة، تسليمها غير مضمون؟ هل يمكنك أن تتخيّل خدعةً أسهل، وأكثر ماكيافيلية في الوقت عينه، تستهدف الملايين والملايين من العقول التائقة إلى من يطمئنها، في خضمّ مخاوفها وشكوكها وتحدياتها اليومية وأزماتها؟ هل تريد حقاً أن تجازف بحياتك، ومبادئك، ومواقفك، وخياراتك، كرهان على ذلك ؟ ألن يكون من الأسلم والأجدى أن تصوغ لنفسك مجموعة من المبادئ الأخلاقية والمعنوية الدنيوية،

القائمة على القيم الإنسانوية العالمية؟ ألن يكون من الأسلم والأجدى أن تقرّر بنفسك ما هي أخطاؤك وتحاول أن تصحّحها؟

زد على ذلك: إذا كانت الجنة موجودة فعلاً، فمن ذا الذي سيرغب في الذهاب إليها، صدقاً؟

ذلك المكان الذي ينضح كل شيء فيه بالمثالية ؟

ذلك المكان حيث أُنزل عقاب برجل وامرأة لأنهما قطفا تفاحة ومارسا الجنس؟

أويعقل هذا؟!

مهلكم على عقولنا!

* * *

في العودة إلى موضوعنا:

تقول إنّ المسلمين يدعون إلى التعصّب؟

لكنّ المسيحيين يدعون إلى الشعور بالذنب. وهذا ليس بأفضل.

تقول إنّ المسلمين يؤمنون بالجهاد؟

لكنّ المسيحيين يؤمنون بأنّ المرء سيحترق في الجحيم. وهذا ليس بأفضل.

تقول إنّ المسلمين يؤمنون بحقّ الرجل في التزوّج بأربع نساء في الوقت عينه؟

لكنّ المسيحيين يعتبرون الجنس خطيئة، لا تجوز إلا بغرض التناسل. وهذا ليس بأفضل.

تقول إنّ المسلمين لا يفصلون بين الدين والدولة؟

لكنّ المسيحيين يفصلون بين الجسد والروح. وهذا ليس بأفضل.

تقول إنّ المسلمين يدينون النساء اذا ما كشفن عن شعرهنّ؟

لكنّ المسيحيين يدينون النساء إذا أجهضنَ. وطالبنَ بالطلاق. وتناولنَ حبوب منع الحمل. وهذا ليس بأفضل.

لا أريد أن أقع في فخّ التعميمات، وأنا على يقين أنّ أي مقارنة بين الديانتين تصبّ في باب الحقائق البالية وغير الثابتة. ليس كلامي، بكل تأكيد، دفاعاً عن الإسلام ولا مقاضاةً للمسيحية. فما من سبيل لتكون حراً في كلا المعسكرين، وقد اختبرت شخصياً أسوأ ما يمكن أن ينجم عن الاثنين. لا فرق. من هنا، فأنا لا أرمي، من خلال تحليلي هذا، إلى إثبات أيّ الديانتين هي الأفضل، ولا إلى اكتشاف أيهما الأكثر تسامحاً وأكثر انفتاحاً وعصرية وإلهاماً وحيوية. على العكس، الأمر يتعلق، بالنسبة إليَّ على الأقل، بالتنبّه إلى أنّ كل الديانات تمسي مؤذية (مؤذية لفطرتك، لنمط حياتك، لقدرتك على الاختيار، ومؤذية حتى لصحتك!) عندما تنقلها من دائرة الغذاء الروحي حيث تنتمي (بالنسبة إلى من يسعى إليها من هذا المنظور طبعاً)، إلى حلقة حياتك الشخصية والعامة، حيث ستقضي، لا محالة، على كل فرصك في الحرية والتوازن وإصدار الأحكام الموضوعية التي كان يمكن أن تحظى بها.

* * *

لكنّ بعض الأشخاص، لا سيما في أيامنا هذه، وفي الغرب خاصةً، يحلّل الأمر من زاوية مختلفة نوعاً ما، وهي زاوية قائمة على بعض الوقائع والافتراضات التي يستخلصها منها. أما طريقة تفكير هؤلاء الأشخاص، فتتمثّل على الشكل الآتي:

عندما أقدمت المغنية الأميركية مادونا، في الفيديو كليب المثير للجدل عن أغنيتها «لايك آ برايرِ» (1989)، على تقبيل تمثالٍ ليسوع أسود اللون، والرقص بإثارة وشهوانية أمام صلبان محروقة، لقيت انتقادات قاسية من الكنيسة والطائفة الكاثوليكية، واعتُبر شريطها المصوّر «تجديفاً على الله»؛

أما عندما عرض المخرج الهولندي تيو فان غوغ فيلمه «خضوع» (2004) الذي انتقد طريقة معاملة المرأة في الإسلام، وتضمّن مشهداً لآيات قرآنية منقوشة على أجساد نساء عاريات، باللغة العربية، فقد تعرّض لعملية اغتيال على يد مسلم هولندي من أصول مغربية؛

وماذا عن «شيفرة دافنشي»، جيلبير وجورج، داميان هيرست ومواقفهم العنيفة المستفزة للمسيحية؟

نالوا نصيبهم من الانتقادات الشديدة اللهجة.

أما سلمان رشدي، تسليمة نسرين، أيان هرسي علي، ومواقفهم العنيفة المستفزة للإسلام؟

فقد استُقبلوا بفتاوى وتهديدات بالقتل.

أتفهّم هذه المقارنات، وأدرك المنطق الذي تستند إليه، لكنني غير مقتنعة بأنها تُعدّ دليلاً دامغاً على أنّ المسيحية أكثر تسامحاً من الإسلام. فما هذه الأفكار إلا مجرّد خدعة. في الواقع، إنني مقتنعة بأنّ الكنيسة قد اكتشفت طرقاً أكثر زيفاً ونفاقاً لمحاربة أولئك الذين يجرؤون على الوقوف في وجه سلطتها.

«لدينا ما يكفي من الدين لنكره، لكن ليس لدينا ما يكفي منه لنحب بعضنا بعضاً» (جوناثان سويفت). مع الأخذ في الاعتبار المشكلات الحقيقية، والمفزعة، التي يمثّلها التعصب الإسلامي والإرهاب اليوم، فضلاً عن التعقيدات الاجتماعية والسياسية التي تتسبّب بها الموجات المتدفقة من المسلمين المهاجرين، آن الأوان ربّما ليعترف الغرب بأنه لن يأخذ شيئاً ما لم يعط في المقابل. شخصياً، لقد ولدت وترعرعت في بلد يحتضن أناساً من مختلف الطوائف تقريباً - سنّة وشيعة ودروز وكاثوليك وأرثوذكس إلخ.، بلد حيث ثماني عشرة فئة دينية مختلفة تتشارك (بلامبالاة سلمية، على الأقل حتى عام 1975) هذا الفضاء الجغرافي والسياسي والاجتماعي المصغّر. وقد تعلّمت، منذ نعومة أظفاري، ألاّ أفاخر بمعتقداتي كما لو أنها الحقيقة المطلقة التي ينبغي أن تنطبق على الجميع. كما تعلّمت أيضاً أننا في حاجة إلى الاختيار ما بين رفض الرموز الجليّة (وبالتالي محوها والقضاء عليها) وقبول هذه الرموز (أي كلها من دون استثناء)؛ وأنّ حرية التعبير مختلفة عن حرية الإهانة، وأنّ الفرق واضح بين الاحترام الحقيقي و«اللياقات والمجاملات».

لكي نتلقى، علينا أولاً أن نعطي: كفانا إذاً استعرائية دينية بمختلف أشكالها المتوافرة. في الواقع، حريّ بالصلاة أن تكون أشبه بممارسة الحبّ: شأناً خاصاً. أسمع الجميع من حولي يتكلم عن الفحش الجنسي، من دون أن يعلو ولو صوت واحد (تقريباً) ليفضح الفحش الديني. فأولئك الذين يمارسون الحبّ في الأماكن العامة يُزجّ بهم في السجون، ومن المتعارف عليه أنّ هذا الأمر يُعدّ جرماً في حقّ مبادئ الآداب واللياقة العامة. لذا، تراني أحلم بعالم علماني، غير ملوّث، حيث يلقى المعاملةَ نفسها كلُّ من يحوّل معتقداته الدينية إلى كرنفال.

* * *

على رغم كلّ ما تقدّم، صحيحٌ أنّ المسيحيين العرب، أو «مسيحيي الشرق» كما يُشار إليهم غالباً، مظلومون من حيث إنهم لا يلقون، إلا نادراً، اهتماماً وتقديراً، وصحيحٌ أنّ عبارة «العالم العربي»

باتت، بالنسبة إلى العديد من العرب والأجانب على السواء، مرادفاً حصرياً لـ «العالم الإسلامي». في هذا السياق، لا يمكن أن ننفي أنّ المسيحيين العرب قد أدّوا دوراً مهماً في تطوير المنطقة، سواء على الصعيد الثقافي، الاجتماعي أو الاقتصادي، في تاريخنا الحديث كما القديم (ولعلّ دورهم المحدّث في العصرين الأموي والعباسي لأبرز مثال على ذلك). بالفعل، لا ريب في أنّ المسيحيين العرب لطالما شكّلوا عنصراً أساسياً، ضرورياً وحيوياً، في التركيبة الفسيفسائية المعقدة والغنية للعالم العربي، وهم يوفّرون وجهة نظر مختلفة نوعاً ما إلى شتى الأمور. لكن ما هذا بسبب كافٍ لتمجيدهم واعتبارهم المخلّص الوحيد للعرب، أو الجهة التي دفعت بهذا العالم نحو العصرية والحداثة. ما هذا بسبب كافٍ لاعتبار أنّ كل امرأة عربية حرة تمشي في شوارع بيروت مسيحية حكماً، وكل امرأة مضطهدة تقبع خلف الأبواب المغلقة مسلمة طبعاً. لا شكّ في أنّ الحجاب والبرقع وأشباههما أمر مروّع فعلاً. هذا هو رأيي الشخصي ولم أحاول مرة أن أخفيه. لكن هل ثقل الحجاب والبرقع يفوق حقاً ثقل الكنيسة اللبنانية وفداحة تمييزها ضد النساء، في حالات الطلاق على سبيل المثال لا الحصر؟ هل يمكن ان ننكر واقع أن كهنة الكنيسة، شأنهم شأن شيوخ الأزهر وآيات الله الشيعة، هم المرجع الأخير لإصدار القرارات المتعلقة بحياة الناس الخصوصية والمدنية؟ وماذا عن القوانين السائدة في أكثرية الدول العربية: تلك التي تعتبر الزوج/الأب المرجع المطلق، فيما الزوجة/الأم مجرّد تابع؟ هل النساء المسيحيات العربيات أكثر تحرراً فعلاً لا لشيء إلا لقدرتهنّ على ارتداء ما يحلو لهنّ (مبدئياً لكن ليس في كل الأحوال)؟ وهل النساء المسيحيات العربيات أكثر انعتاقاً لمجرّد أنهنّ قادرات على الخروج للسهر ليلاً؟ أهذا هو فعلاً المغزى الحقيقي للحرية والانعتاق، أم هما مرتبطان بمدى احترام حقوق المرأة كأم، وابنة، وزوجة، وموظفة، وكائن بشري، ومدى إفادتها من حماية هيكلية عمل قانونية ومدنية تتميّز بالحيادية والعدل على السواء؟ أتراها تتلهّى عن الجوهر بوعود بسيطة تافهة تلوّح لها بها السلطات، سواء الدينية منها أو السياسية (وفي كل حال، هل من فرق بين الاثنتين في عالمنا العربي؟) كي تلهيها عن المغزى الحقيقي للحرية والانعتاق؟

من جديد، أسأل: هل من فرق واضح وحقيقي ونهائي بين وضع المرأة العربية المسلمة والمرأة العربية المسيحية؟ أخشى أن لا. لا فرق فعلاً إذا توغّلتَ في الأعماق. كل ما في الأمر أنّ الظلم والمعايير المزدوجة والأحكام المسبقة هي أحيانا أكثر وضوحاً في الحالة الأولى منها في الحالة الثانية.

والواضح يكون، في كل الحالات تقريباً، مصيدة.

* * *

«لا أفهم كيف حدث ما حدث: لقد أدخلتك إلى مدرسة دينية، وكانت أمّك تصطحبك إلى القدّاس صباح كل أحد. كنت تتلين صلواتك قبل الإخلاد إلى النوم. وقد عمّدتك وحرصت على تناولك قربانتك الأولى. فكيف كبرت لتصبحي على هذا النحو؟ أين أخطأتُ وأين أصبت؟» تلك هي الأسئلة التي كان والدي يطرحها عليَّ بين الفينة والأخرى، بنبرة ساخطة حقيقية، على رغم افتخاره بما حققته من إنجازات بسيطة في ذلك الحين. لكنه سخطٌ يلطّفه بدعابة أو نبرة غفورة كأنه يقول لي: «أحترم ما أنت عليه اليوم، ولكن في بعض الأحيان يصعب عليَّ أن أتقبّله. يتملّكني شعور لا أقوى على التحكم به بأنني في شكل ما فشلتُ في تربيتك».

أما أنا، فأجيبه: «حيثما ظننتَ أنك أصبت هو، بالضبط، مكمن خطئك. أنا نتاج لتلك التربية الدينية الصارمة التي منحتني إياها. وهي تربية تثمر، حتماً، نوعين من الأشخاص لا ثالث لهما: النوع «المثقل بالتعقيدات»، والنوع «المدمن للانتهاكات» (نوعي أنا). لا مكان للحالات السوية في هذه المعادلة».

لأجل ذلك حريّ بنا العودة إلى ما قبل عهد «الصواب» و«الخطأ»، ما قبل عهد المؤسسات الدينية، ما قبل عهد «فكِّر مثلي» و«نحن على حقّ وهم المخطئون». دعونا نعُدْ إلى ما قبل ذلك حتى: إلى ما قبل عهد الخطيئة الأصلية، وكل المؤلّفات المشوّهة وطريقة التفكير المتأثّرة بها.

فلنعد إلى ما قبل آدم. ما قبل حوّاء. ما قبل الملائكة وقبل الأبالسة. قبل الصالح والمستقيم وقبل الآثم والشرير. ما قبل الوصايا. قبل العقاب. قبل الثواب. قبل المقدّسات. قبل الله. وقبل الشيطان.

ومن ثم دعونا نبدأ من جديد، نبدأنا نحن من جديد، من تلك النقطة العذراء بالذات.

* * *

هل أنا أستفزّ ربّنا إذاً؟
أهو غاضب عليَّ، وهل سيعاقبني؟
هل سيحكم عليَّ بعذاب أبدي ويحرمني من ملذّات الجنة ونعيمها؟
فليكن! أنا مستعدّة للمجازفة بذلك كله. فإذا كان موجوداً فعلاً، لا أريد ربّاً أعجز عن تحدّيه واستفزازه، مثلما تتحداني فكرته وتستفزني.

فوق ذلك كله، وقبله، لا أريد أن أعيش حياتي على هذه الأرض وأنا مشغولة بالتفكير في الحياة ما بعد الموت. فهذه هي النهاية بالنسبة إليَّ يا أصدقاء! هذا كل ما ينطوي عليه الأمر: تلك السنوات الأربعون أو الخمسون أو ربّما التسعون، بكل أفراحها البسيطة وخيبات الأمل التي ترافقها، هي كل ما يعنيني.

أما بالنسبة إلى الأخطاء التي أرتكبها، فالعقاب الوحيد الذي أعترف به جزاءً لارتكابها هو إدراكي واستيعابي لها، واضطراري للتعايش معها: وبعد، فهل من عقاب أقسى وأثقل على روح الإنسان، وعقله، وقلبه، من هذا الإدراك بالتحديد؟

أما المكافأة الوحيدة التي أطلبها لقاء «أعمالي الخيّرة»، إذا أتيت بعضها، فهي معرفة أنني قمت بها من دون توقّع أي شيء في المقابل: لا تربيتة على الكتف ولا صيحات استحسان ولا مفاتيح الجنة يمنحني إياها القديس بطرس. أنا على يقين بأنّه ما من مكافأة أرقّ ولا أعذب.

الله، تقول؟ أريد أن أحاول مواجهة ذلك التنّين، ككاتبة. وامرأة. وإنسان. وبواسطة أدوات الكاتب. والمرأة. والإنسان.

أما بالنسبة إلى الأشخاص الذين يخبرونني بأنّ واجبي، كامرأة عربية، هو إطاعة الرجل، وتغطية شعري، والاعتراف لدى الكاهن، وطلب الغفران كلّما مارست الجنس مع رجل من دون رباط الزواج ومن دون رغبة في الإنجاب منه، فأتركهم لقناعاتهم التافهة: هذه، في كل حال، تمثّل عزاءهم الوحيد في هذه الحياة.

وعقابهم الأسوأ أيضاً.

* * *

«عندما يقترح الدين نظيراً أنثوياً لله، سأكنّ احتراماً أكبر له حينذاك» (هدى شعراوي). ما هي مسؤولية المرأة العربية في خضمّ هذا النقاش؟ ما هي مسؤوليتها تجاه الدين وتدخله في حياتها، وما يفرضه من موانع على حريتها في الاختيار؟ مسؤولية المرأة العربية، في رأيي الشخصي في الأقل، تقضي بالوقوف في وجه هؤلاء الذين يريدون غسل دماغها وتضليلها ومنعها من التقدّم. تقضي بإدراكها أنّ كل هذه الأديان التي تتمثّل بآلهة وشخصيات ذكورية فقط (من بابوات وشيوخ وأئمة وقساوسة وأنبياء وغيرهم) لا بد تشكو من علة لا محالة. وهي تقضي أيضاً بإيمانها بقوة مجتمع مدني علماني، والمساهمة في تعزيزه وتطويره.

باختصار، مسؤولية المرأة العربية هي التفكير في نفسها عن نفسها .

لقد حان الوقت - منذ زمن ليس بقريب -، كي نقوم، نحن نساء العالم العربي، بتحدي النماذج المفروضة علينا سلفاً في الدين. وفي السياسة. وفي الجنس. وفي الكتابة. وفي الحياة ككل. الوقوف في وجه هذه التحديات هو ما يخلق الفرق بين امرأة عربية نموذجية وامرأة عربية غير نموذجية؛ بين امرأة خاضعة بما يكفي لكي تستسلم لـ «قدرها» وللحدود المفروضة عليها، وامرأة قوبة بما يكفي لتعيش وتقول لا، حتى عندما يفترض هذان العيش والرفض أن تُمنى بخسائر.

لكنّ الخسائر حكاية أخرى.

وستكون حكايتي الأخيرة (في الوقت الراهن).

7 امرأة عربية تعيش وتقول لا

«حجبي نور حريتي
وسدّي عليَّ رحاب الفضاء
ولكن قلبي هذا المغرّد
لن تطفئي فيه روح الغناء».

فدوى طوقان
شاعرة فلسطينية (1917-2003)

«مرحباً بكم في مطار رفيق الحريري الدولي». صوت المضيفة يصل إلى مسامعي مرة تلو الأخرى، رتيباً، مملاً. هو مطار حديث، نظيف، منظّم وعملي. هذا المكان الفسيح، اللاشخصي، صار يبدو كأنه بيت لي، لا سيما خلال السنوات الأخيرة، نظراً إلى رحلاتي وأسفاري المتكررة. صارت لي فيه مواقع سرية، ومقعد مفضّل في أحد المقاهي (حيث يبلغ ثمن فنجان القهوة الواحد سبعة دولارات: سرقة واضحة نحن أسياد فيها!). لي فيه مكتبة أقتني منها قوتاً لسفرتي، وسلالم متحركة جالبة للحظ. ليس هذا فحسب، بل إني أمارس فيه أيضاً طقوسي الخاصة وأراعي ما أؤمن به من خرافات (كارتداء سروال داخلي أحمر عند السفر، والدخول من المطار دوماً عبر الباب رقم 2، برجلي اليمنى أولاً). الروتين هو هو: تسجيل الدخول، منح ابتسامة عريضة لموظف شركة الطيران كي يغضّ الطرف عن الوزن الزائد في حقيبتي، اقتناء السيجار، تفادي قسم العطور بأي شكل من الأشكال، ثم احتساء فنجان كابوتشينو من دون سكّر. لا بل صار العديد من الموظفين في

المطار يتعرّفون إليَّ: عندما يبدأ أكثر من خمسة بائعين في السوق الحرة بمناداتك باسمك، اعلم حينذاك أنّ نمط حياتك يدعو إلى القلق. في الواقع، أصادف دائماً أحد ضباط الجمارك الذي لا ينفكّ يقول لي كلما فحص جواز سفري: «ألا تسأمين أبداً من كل هذه الأسفار؟».

ألا أسأم أبداً من كل هذه الأسفار؟ في الواقع، بلى يا حضرة الضابط الكريم. بالطبع أفعل. في أغلب الأحيان، يهدّني التعب والإنهاك، تخور قواي فأمسي متبرّمة وممزّقة. في أغلب الأحيان، يجتاحني مزيجٌ من النفور والارتباك، لا سيما عندما أستيقظ في غرفة باردة في فندق ما، فأحتاج إلى بضع هنيهات لأتذكّر أين أنا بالضبط؛ أو عندما أتأمّل وجهي في مرآة جديدة كل صباح، فأشعر أنني بالكاد أتعرّف إليه؛ أو حين يهزّني الشوق إلى ولديَّ، فألعن الهاتف لأنه لا يُشعرني مرّةً بالاكتفاء، ولا كان مرةً حقيقياً كفرحة الشمّ والضمّ واللقاء. ولا ننسى أيضاً تلك الإجراءات شبه العسكرية التي لا مناص منها، ما قبل رحلة الطائرة وما بعدها: من توضيبٍ لحقيبة السفر، وتسجيلها لدى مكتب خطوط الطيران، ومن ثم تسلّمها (هذا إذا كان الحظ مبتسماً لك، فلم تكن مسافراً على الخطوط الجوية لشركة «أليتاليا»)، وبعد ذلك فتح الحقيبة، فإفراغها... مرة تلو مرة تلو مرة كأنشودة مملة. لكأنك تعيش حلقات متتابعة من نفي مستمرّ، لا بل حريّ بي القول: كأنك تتدرّب على تمرين النفي، وتحرص على تكراره مرة تلو الأخرى حتى تتقنه ببراعة.

لكنّ الأمر لا يقتصر على هذا الحدّ. فلا بدّ من الإشارة إلى ذلك الشعور بالوحدة الذي يرافق عادةً كل روح رحّالة لا تنفكّ تبحث عن مجهول يستحوذ عليها. لا أقصد الوحدة بمعنى معاداة المجتمع وتجنّبه، بل على العكس تماماً: فأنا أستمتع بصحبة الناس عندما تكون اللقاءات مثيرة للاهتمام، وفي جرعات صغيرة، وغير مفروضة عليَّ فرضاً. بل أقصد بكلامي الوحدة كحالة نفسية وفكرية داخلية: تلك التي تسمح لك بالإصغاء إلى نفسك، فتدرك مدى ضعفك وهشاشتك؛ تلك التي تتيح لك فهم كيفية عمل دماغك والعالم من حولك فهماً أفضل، فتتخلّص من الأوهام التي تُنسج في شأنهما؛ تلك التي تشعرك كأنك تطفو، وكأنك منفتح على كل الإمكانات، فتدفعك إلى التضحية دونما تردّد بكل ما كنت قد جهدت لتحقيقه؛ تلك التي تجعلك تبصر الأشياء من حولك «فعلياً»، بعيداً من أي تدخل أو تأثير أو إلهاء من مصدر خارجي، فتُصاب تالياً بخيبة أمل «فعلية».

إذاً، يتملّكني إحساسٌ لا مفر منه بخيبة الأمل مع كل رحلة. وبالإنهاك غالباً. إضافة إلى شعور بالملل بين الفينة والأخرى. ولا أنسى طبعاً ذلك الارتباك الذي تخلّفه فيَّ كل تلك الفضاءات المتنوّعة، تلك الوجوه، الإيقاعات، الأصوات، الكلمات، المسلكيات، والوسائد المختلفة عمّا كنت قد ألفته. لأجل ذلك أسأل نفسي: لِمَ أسافر إذاً بهذا التواتر، وبهذين الشراسة والجوع الانتحاريين أحياناً، إذا كانت تزعجني كل تلك الأمور؟ لِمَ أكلّف نفسي العناء؟

الإجابة سهلة حقاً. أسافر لأنّ السفر عندي أشبه بالتنفس والعيش، مما يجعله تالياً يستحقّ العناء. فالتنقّل في مختلف أرجاء العالم، والتعرّف إلى أشخاص جدد، واكتشاف ثقافات جديدة، يستحقّ كل التعب والفوضى والأخطار والارتباك والخيبات التي ترافق هذه التجربة الفريدة. هذا هو أحد الأسباب الأساسية للوجود. أعني بذلك رؤية أشياء جديدة، قراءة كتب جديدة، القيام بأمور جديدة، تناقل أفكار جديدة، اختبار مشاعر جديدة، تعلّم دروس جديدة، الشعور بالحبّ تجاه أشياء جديدة (وأشخاص جدد طبعاً).

إن لم يكن هذا عيشاً، فما العيش إذاً؟

* * *

لكن أن تعيش يعني أيضاً أن تكون فخوراً بمن تكون.

عندما كنت لما أزل فتاةً صغيرة، درجت على القول لكلّ من حولي إنني أتمنى لو كنت قد ولدت صبيّاً. لكنني لم أكتشف فداحة خطئي وغبائي إلاّ عندما اختبرت أعجوبة أن أكون أنا نفسي ؛ أعجوبة اليد التي أكتب بها؛ تلك الدماء القديمة والطازجة التي تجري فيها؛ أعجوبة جروحي، تلك المفتوحة على اتّساعها كأنها عيون تحملق فيَّ، ملؤها الذعر والنهم؛ أعجوبة الشواطئ التي أحلم بالسير على طولها؛ أعجوبة الحلقات التي أنوي كسرها لأعيد ابتكار طريقي الخاص؛ أعجوبة الهويات والحقائق المستحيلة التي أرغب في تسميتها بنفسي؛ تلك الصور المتعدّدة التي سأضطر إلى أن أكونها، ثم إلى أن لا أكونها؛ الرجل الذي سأحتاج إلى اكتشافه وعشقه واستقباله وغمره بالنور ثم تحريره مني؛ أعجوبة الحياة، كل الحيوات التي أعيشها رغماً عن أنف الحياة...

أعجوبة أن أعيش.

«ليست المرأة ضحية قدر غامض. ويجب ألا تفترض، في أي حال من الأحوال، أنّ مبيضها يحتّم عليها أن تعيش ذليلة أو خاضعة إلى الأبد» (سيمون دو بوفوار). لقد حان الوقت كي تعيش المرأة، عوضاً من اكتفائها بالبقاء على قيد الحياة؛ حان الوقت لتحرّر نفسها من صورة الضحية التي وقعت في أسرها. فالمرأة ليست ضحية، وحريّ بها أن تكفّ عن رؤية نفسها بهذه الطريقة، لا بل يجب أن تتعلّم كيف تقبل نفسها وتحبّها وتفخر بها على رغم كل شيء. ثم من قال إنّ النرجسية أمر معيب؟ فلتحيَ النرجسية إذا كانت تتيح لك اعتناق حقيقتك والاحتفاء بها! فلتحيَ النرجسية إذا لم تكن من النوع الذي يحوّلك كائناً متحجراً، قاسياً وأنانيّاً!

يجب على النساء أيضاً أن يحرّرن الرجل من عقدة خوفه من المرأة القوية، حتى يتوصّل إلى اعتبارها حليفاً أساسياً، ضرورياً، مفيداً، عوضاً من تصويرها كأنها خطرٌ مكبّل ينذر بتجريده من رجولته؟ صحيحٌ أنّ الوصول إلى هذه المرحلة من التفكير يتطلّب منه بذل الكثير من الجهود، إلا أنه يشترط أيضاً جهوداً مماثلة تبذلها المرأة نفسها: اذ ينبغي ألاّ تستخدم هي قوّتها لتخويفه أو التهويل عليه، مهما شعرت بالرغبة في ذلك.

إذاً أن نعيش، يعني أن نتقبّل ما نحن عليه. لكنه يعني أيضاً القدرة على تقبّل التغيير أيضاً. ولعلّ هذا هو أحد الأسباب الذي يدفعني دوماً إلى توضيح آرائي، مع إفساح المجال لبعض النقد الذاتي، وهامش من التنويع. فالتغيير حق من حقوقنا كبشر. وهو ليس مرادفاً لعدم الثبات على مبدأ معيّن، كما يحلو لبعض الأشخاص الصارمين التفكير؛ بل على العكس تماماً: التغيير يعني أن نسمح للكون بالتغلغل فينا، فيشقّ بأمواجه درب عقولنا وأرواحنا. جلّ ما أكرهه هو أن أبقى على ما أنا عليه خلال عشر سنوات من الآن، أو خلال خمس سنوات، أو حتى خلال سنة واحدة فقط. أحياناً، أتساءل: ألا يملّ الأشخاص الثابتون، العنيدون، من أنفسهم؟ ألا يسأمون أبداً من تكرار الكلمات والأفكار والمفاهيم عينها؟ لا أقصد القول إنّ المزاجية والتقلّب يجب أن يكونا ميزتين من ميزاتنا، كما لا أدافع، على وجه التأكيد، عن السلوك المتقلّب الذي لا يُعوَّل عليه. كلّ ما أقوله هو: دعونا نسترخِ قليلاً، فلا نحمّل الأمور جديةً لا تستحقها. فلنكن منفتحين دوماً على احتمالات أخرى. فلنسمح لتيّار الأفكار الجديدة بأن يجرفنا في بعض الأحيان. فأن يصاب الإنسان بالسأم أو باللامبالاة، هو أسوأ ما

يمكن أن يحلّ به. يمسي لسان حاله كالآتي: «هذا فعلته، وذاك اختبرته». كم هذا مؤسف... إنه نقيض العيش بامتياز!

* * *

أن تعيش، أخيراً وليس آخراً، يعني أيضاً أن تُمنى بالخسارة. أو على الأقل هكذا هي الحال بالنسبة إليَّ أنا. فلست بامرأة خارقة، ولن أكون أبداً، ولا أريد أن أكون. وقد نلت حصّتي من الهزائم والخسائر خلال رحلتي في هذه الحياة:

كم من مرة في حياتي خانتني الشجاعة، فخسرت المعركة؛

كم من مرة تصرّفت بغباء وضيق تفكير، فخسرت النقاش؛

كم من مرة سرقني السباق إلى التنافس، فخسرت متعة المنافسة؛

كم من مرة كنت متكبّرة، فخسرت امتياز التحلي بالتواضع؛

كم من مرة تعاملت مع الآخرين بتسلّط لا مبرّر له، فخسرت امتياز الحكم بعدل؛

كم من مرة لجأت إلى التملص والمراوغة، فخسرت ثقتي بنفسي؛

كم من مرة تشتّت انتباهي وفقدت قدرتي على التركيز، فأضعت الهدف؛

كم من مرة، قمت بأشياء لا لشيء إلا لأثبت قدرتي على تنفيذها؛ فخسرت إحساسي بتحقيق إنجاز ما؛

كم من مرة ظننت أنّ في إمكاني التفوّق على خصومي بكل سهولة، فخسرت أمامهم؛

كم من مرة شككت في أصدقائي، فخسرت أصدقاء حقيقيين؛

كم من مرة وضعت ثقتي في أشخاص لا يستحقونها، فغدروا بي؛

كم من مرة ظننت أنني لا أُقهر، فتعرّضت لطعنة في الصميم؛

كم من مرة آثرت التحدي من غير داعٍ، فتلقّيت صفعةً على وجهي؛

كم من مرة قلت لا عندما كانت كل جوارحي تصرخ بنعم، فخسرت تجربةً كانت لتبدّل مجرى حياتي؛

كم من مرة قلت نعم عندما كانت كل جوارحي تصرخ بلا، فخسرت درساً كان لا بدّ منه؛

كم من مرة اخترت ضبط النفس على حساب الاستسلام لأهوائي، فخسرت الحب؛

كم من مرة اخترت وهم انتصاري على حساب الاعتراف بضعفي، فخسرت حقيقتي؛

كم من مرة فضّلت التوقّف عند السطح على حساب التوغّل في الأعماق، فخسرت المعرفة؛

كم من مرة فضّلت الأنانية على سماحة النفس والعطاء، فخسرت ما امتنعت عن وهبه؛

كم من مرة أردت، بشدّة، الحصول على أشياء تافهة، أو عقيمة، أو صبيانية، أو غير ذات جدوى، أو بعيدة عن متناولي؛ فلم تمنحني الأشياء العقيمة إلاّ شعوراً بالتفاهة؛ أما الأشياء البعيدة عن متناولي التي لم أنلها، فقد بدّدت وقتي وزرعت فيَّ شعوراً بالإحباط.

... وها أنا قد تعلّمت الكثير، وكسبت الكثير، من كل تجربة من هذه التجارب. من كل جرح وإصابة. من كل خسارة. من كل دمعة.

من كل سقوط.

* * *

لا يزال في جعبتي الكثير من القصص والحكايات التي كنت أودّ أن أكتب عنها في هذا الكتاب: وددت لو أكتب عن الحب، عن الوحدة، الزواج، الطلاق، الأعمار، العلاقات، الحاجة إلى فسحة خاصة، الحاجة إلى الحميمية، اقتناص اللحظة، اختبار تجارب جديدة، لحظات السعادة المطلقة، ولحظات اليأس السوداوية...

وددت أيضاً لو أكتب عن ذهنية «الحريم» الصامدة، عن خرافة العذرية، عن فنّ مزاولة مهام عدة في وقت واحد، أهمية التربية والتعليم، معنى تكوين مسيرة مهنية، وقيمة الاستقلالية المالية...

ولا أنسى كذلك: اللغات، الطموح، تربيتي لأطفالي، تربية أطفالي لي، كسر القوالب الجاهزة، السموّ فوق الصيغ الجاهزة...

لكنني لست جاهزة للتوغل في هذه المواضيع بعد. وحتى يحين الوقت المناسب، سوف أكون في الانتظار.

وأتمنى أن تكون أنت أيضاً كذلك.

في غضون ذلك، إليك نظرة خاطفة أخيرة إلى واقعي، بل واقعنا نحن كنساء عربيات: «للمفارقة، كلما تفهّم الغرب مكاسب الأنوثة العصرية، وأبدى نفوره من «الإذلالات» التي تتعرّض لها المرأة العربية، تضاءلت قدرة النساء في العالم العربي على فتح أفواههنّ. فاليوم، مع امتلاء شوارع القاهرة وبيروت من جديد بالنساء المتّشحات بالسواد، أولئك الساعيات إلى انتزاع الاحترام من خلال حجاب يثبت وجودهنّ جسدياً، ومع شنّ تيار الأصولية حملة ناجحة هدفها تجميل صورته وسط نماذج التزمّت الديني، لا تدافع العديد من النساء العربيات القائلات بالمساواة عن أنفسهنّ إلا بخجل، ضدّ الموجة العاتية» (مي غصّوب).

كم هي صادقة ودقيقة هذه الكلمات، لا سيما في عصرنا هذا!

«بهلوانات»: ما من صفة أفضل لوصفنا نحن النساء العربيات في هذه الحقبة من التاريخ. نحن بهلوانات معلّقات في الهواء، متدليات ما بين السماء والأرض، فوق حبل مشدود ما بين البؤس والخلاص. وفوق ذلك كله، ما من شبكة أمان تحتنا لتقينا شرّ السقوط.

لكن ها أنا؛ بل ها نحن: نساء عربيات يتجرأن على «فتح أفواههنّ».

نساء عربيات «يدافعن عن أنفسهنّ ضدّ الموجة العاتية».

نساء عربيات يرفضن تحمّل الظلم والسكوت عنه، ويجاهرنَ بآرائهنّ.

نساء عربيات يقلن لا.

باختصار، نساء عربيات يحاولن عبور الهاوية.

فهل سننجح يوماً في الوصول إلى الضفة الأخرى؟

سأعلمك بالنتيجة.

أعدك بذلك.

كي أبدأ ثانيةً... هل أنا حقاً «امرأة عربية»؟

عزيزي القارئ الغربي ،
والأهم من ذلك: عزيزي القارئ العربي ،

أبعد من فخاخ الإنكار وخداع الذات، الكليشيهات والكليشيهات المناهضة، الأفكار الشائعة والاستثناءات، الواقع والوهم (وكلاهما زائف وخادع للمناسبة)، حان الوقت لنطرح على أنفسنا السؤال الآتي: هل من كائن فعليّ يمكن أن يُعرف بـ «المرأة العربية»؟

سواء أأعجبني الأمر أم لا، سواء أوافقت على هذه التسمية أم رفضتها، أبقى امرأة، امرأة عربية، كاتبة عربية. وبذلك فإنني أجسّد أغرب «صندوق للفرجة» يمكن أن يستقطب الفضول في حقبة ما بعد أحداث 11 أيلول. لكن هل يجعل هذا مني ممثلة لـ «فصيلة» معيّنة؟ صدّقني عندما أقول لك إنني بالكاد أستطيع تمثيل نفسي.

لا أحبّ المواعظ ولا الخطب المملة. كما إنني لا أتمتع، على الإطلاق، بالمواصفات المطلوبة التي تجعلني أهلاً لوعظ الآخرين. من هنا، أرجو ألاّ تُعتبر كلماتي التالية نوعاً من الخطب الرنانة: في الواقع، إنّ النساء العربيات مثيلاتنا كثيرات. تالياً، يجب أن نرفض الاستخفاف بنا أو التقليل من شأننا. قال وليم بلايك: «إنّ العناية بالتفاصيل هي الميزة الوحيدة التي تثبت أهلية الشخص». في الواقع، لقد مُنحنا أظفاراً لغرض معيّن: كي نُحدث فرقاً، ونتوغّل في العمق، ونمزّق تلك الطبقة العامة الحسية، فنبلغ ما يتعدّى ذلك السطح المتلألئ... ولا يخفى على أحد أنّ «الحجاب» يأتينا بألف نسيج وتصميم متنوّع: حجاب الإنكار؛ حجاب خداع الذات؛ حجاب التسويات؛ حجاب التسميات الكاذبة؛ حجاب التحيّز السياسي؛ حجاب الآراء والاستنتاجات المشوّهة؛ حجاب الترقب والخوف؛ حجاب الأفق الضيق؛ والأخطر من ذلك كله، حجاب الرموز الخاطئة المصنّعة في الأروقة الإعلامية...

* * *

أعيد وأكرّر: لا تفتقر النساء العربيات كلهنّ إلى العزيمة وقوة الشخصية. حسبنا، دليلاً على ذلك، أن نقرأ، نحن الغربيين والعرب، نصوص مفكّرات عديدات مثل مي زيادة، هدى شعراوي، إيتل عدنان، مي غصوب، فاطمة المرنيسي، لور مغيزل وخالدة سعيد؛ أن نكتشف روايات كاتبات على غرار أهداف سويف، علوية صبح، هدى بركات، حنان الشيخ وسحر خليفة؛ أن نتأمل أعمال فنانات مثل زها حديد، منى حاطوم، هيلين الخال وغادة عامر؛ أن نفهم قصائد جويس منصور، سنية صالح، نازك الملائكة، ناديا تويني وفدوى طوقان؛ أن نشاهد مسرحيات جليلة بكّار، رجاء بن عمار، لينا خوري، دارينا الجندي ونضال الأشقر؛ أن نستمتع بأفلام جوسلين صعب، رندة الشهال، دانيال عربيد، ليلى المراكشي وغيرهنّ كثيرات...

في الواقع، هذه الشهادة هي أيضاً تحية إجلال متواضعة إلى كل المؤلّفات والمفكّرات والفنانات الرائعات اللواتي أتيت على ذكرهنّ أعلاه، وإلى كل امرأة عربية، سواء أكانت مجهولة الهوية أم تحتل مكانةً بارزة في المجتمع، قادرة، على رغم كل ما تواجهه من تحديات وعوائق وتهديدات، على إحداث فرق في هذه الحياة - حياتها أولاً وحياتنا تالياً.

* * *

لا شكّ في أنّ سوء التفاهم متبادل بين الغرب والشرق. وأنا على يقين بأننا، نحن العرب، نطلق الكليشيهات في حق الغرب، بقدر ما يفعلون هم في حقنا (لعلّ أحد الأمثلة المشينة في هذا السياق، تصويرنا للمرأة الغربية على أنها «فاسقة» و«سهلة» و«منحطة»، وهو تصوّر ليس بغريب على العديد من العرب). لكن هل نريد حقاً أن نوطّد معرفتنا بعضنا ببعض؟ فلنبدأ بالاعتراف إذاً بأن ليس ثمة «أنت» ولا «نحن». ولنشطب احتمال وجود عيّنات بشرية محدّدة أو أفكار نمطية. كل إنسان مميّز في ذاته وكل طريق نسلكها في هذه الحياة طريق فريدة من نوعها. فلنبحث عن النواة في قلب

كل شخص: الكلّ يتضمّنه الجوهر. والجوهر ليس ساكناً؛ لا بل إنّ سرّ روعته يمكن في كونه عصياً على القبض أو الإدراك، بما أنه يتغيّر باستمرار.

* * *

هل تخال أنك تعرفني الآن إذاً، بعدما فرغتَ من قراءة هذا الكتاب؟ هل تظنّ أنه، باطّلاعك على هذه الشهادة، قد أصبح في إمكانك تصنيفي ضمن فئة معيّنة؟
الأجدر بك أن تعيد النظر، لأنني تغيّرتُ تغييراً جذرياً فيما كنتَ أنت منكبّاً على القراءة.
وأنتَ كذلك تغيّرت.

كتب فرانز كافكا: « لا شيء هو كما يبدو عليه ».

لقد حان الوقت بالنسبة إلينا جميعاً، من عرب وغير عرب، من شرق وغرب، كي نصدّقه.

بيان الجريمة: هكذا قتلتُ شهرزاد

بصراحة ، ومن أوّل الطريق : أنا لا أحبّ شهرزاد .

أعلم أنه ينبغي لي، لكوني امرأة لبنانية وعربية، أن أكون معجبة بها، أو أن أكون على الأقل متضامنة معها. ولكن لستُ.

قد يبدو للوهلة الأولى أني «أغار» منها. شهرزاد هذه، شهرزاد تلك، شهرزاد هنا، شهرزاد هناك: أفّ. لا تنفكّ الألسن تلهج باسمها كلما أتى أحدهم في العالم على ذكر الأدب العربي المكتوب بأقلام نساء. لكني، صدقاً، لا أغار منها. بل أكثر من ذلك: لا يمكنني، «منطقياً»، نظرياً وعملياً، أن أغار منها. وسوف أشرح لماذا.

تحتفي ثقافتنا بشهرزاد كامرأة كانت على قدر كبير من العلم والذكاء والحنكة والخيال، الأمر الذي مكّنها من إنقاذ روحها من الموت المحدق بها، من خلال «رشوة» الذَّكَر، الملك شهريار، بمتاهة قصصها الساحرة.

حسناً. بل أكاد أصرخ «برافو» مع حشد الصارخين المهللين. ثم أتوقف هنيهة، هنيهة فقط، وأعيد النظر في الخطّة، فأمتنع عن التصفيق.

هل ترونني مصابة بنوع من البارانويا، أم توافقونني الرأي على أنها خطة تبعث برسالة مشوّهة ومؤذية إلى النساء، تقول لهنّ بوضوح: «سايرن الرجل، امنحنه ما تملكن، وما يشتهي، وسوف يدعكنّ وشأنكن»؟ بل يبدو بديهياً أن هذه الخطة تضع الرجل في موقع «المانح» الكلي السلطة، وتضع المرأة في موقع الضعف المساوِم والمستفيد من «هبات» الرجل. هي لا تعلّم النساء المقاومة

والتمرّد على مصائرهنّ الصعبة، مثلما يوحى كلما وُضعت صورة شهرزاد على طاولة المناقشة والتحليل. بل تعلّمهنّ التنازل والتحايل والتفاوض على حقوقهن البديهية: الحق في العيش. الحق في الاختيار. الحق في الحرية. الحق في أن يكنّ ذواتهنّ. الحق في ألاّ يدفعن ثمن أخطاء الآخرين. إنها خطة تقنعهن بأن إرضاء الرجل و«برطلته»، أكان ذلك بقصة مشوّقة، أم بطبخة لذيذة، أم بثديين سيليكونيين... الخ، هي الطريقة المثلى للصمود والنجاح في الحياة.

هل ينبغي لي أن أعتبر هذا سلوكاً خلاّقاً؟

هل يفترض بي أن أسمّي هذا «تمرّداً»؟

عذراً ولكن لا.

* * *

أكرّر: لا أحب شهرزاد، ولم أحببها يوماً، على رغم أنني شغوفة منذ الطفولة بقصص «ألف ليلة وليلة». لا بل إني مقتنعة بأنّ شخصيتها مؤامرة ذكورية (وربما نسوية أيضاً) على المرأة الشرقية خصوصاً، وعلى المرأة عموماً. زد على ذلك أنها معشوقة حدّ الغثيان من مهووسي النظرة الإكزوتيكية إلى الشرق، مما لا يشفع بها كثيراً عندي.

لا تفهموني خطأ. أنا لا أحكم على أفعالها. مما لا شك فيه أنّ المسكينة فعلت الشيء الوحيد الذي كان يمكنها فعله للنفاد بجلدها. وربما كنتُ تصرفتُ مثلها تماماً، لو كنتُ في وضع مماثل لوضعها الدقيق.

لا، لست أدين شهرزاد على ما قامت به للنجاة من الذبح. لكني ضقت ذرعاً بإصرار البعض، بل الغالبية، على تحويلها «بطلة»، ورمزاً أدبياً للمقاومة والعنفوان النسائيين لدينا، وشعاراً للكفاح ضد «ظلم الرجال وكيدهم العظيم». إن هي سوى سيدة لطيفة، ذات خيال واسع، وقدرات ممتازة على التفاوض. لا أكثر، لا أقل. التضخيم يستفز التحجيم، ولأجل ذلك كان ثمة حاجة ملحة إلى وضع الأمور في نصابها.

... فقتلتُها.

* * *

قتلتُ شهرزاد. هكذا بكل بساطة. خنقتُها بيديَّ هاتين. كان ينبغي لأحد أن يفعل ما فعلتُه في آخر المطاف. فالتحليل المضاد والمحاججة النقدية لم يبرهنا عن قدر كافٍ من الفاعلية لتحدّي صورتها.

في الحقيقة، لم تكن عملية القتل صعبة التنفيذ. فبدلاً من الصراخ والكفاح للإفلات مني، بدلاً من الخرمشات والعضات والصفعات، كما كانت لتتصرف أي شخصية تخييلية تحترم نفسها لدى محاولة كاتب الهجوم عليها، جلّ ما فعلته تلك المرأة الطائشة للدفاع عن نفسها هو أنها عرضت أن تروي لي قصة في مقابل العفو عن حياتها! هل تصدّقون ذلك؟ «دقّ الميّ ميّ»، كما يقول مثلنا اللبناني. كانت تلك، طبعاً، الضربة القاضية التي أطاحت كل حظوظها في البقاء على قيد الحياة. لم أستطع احتمال

رخاوتها تلك، فظللتُ أشدّ بيديَّ هاتين حول عنقها، حتى لفظت قصتها الأخيرة. أعني... نَفَسها الأخير.

قتلتُ شهرزاد، نعم. لكنني لا أستطيع أن أنسب الفضل كله إليَّ وحدي. فالكثير من الشركاء قد ساعدوني، طوعاً أو غصباً، على تنفيذ جريمة القتل هذه. هم المحفّزون الذين وضعوا أيديهم بيديَّ - سواء عن عداء أو عن تشجيع - والذين يجب أن أتوجّه إليهم بالشكر الآن:

قتلتُ شهرزاد بيد كل الرجال الذين حاولوا، بشتى الطرق ومختلف الأقنعة، أن ينحروا عنقي؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل النساء اللواتي حاولن، بشتى الطرق ومختلف الأقنعة، أن يقنعنني بأنّ نحر رجل لعنقي أمرٌ لا بأس به؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل الرجال والنساء الذين أرادوني أن أتخلى عن جزءٍ مني كي أنقذ عنقي من النحر؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل كاتب مُنع، سواء بمقصّ خارجي أو داخلي، من كتابة كلّ ما يرغب فيه، وكلّ ما يحق له أن يكتب؛

قتلتُ شهرزاد بيد أمي التي لم تُرد لي أن أعيش نوع الحياة التي عاشتها، والتي أوضحت لي ذلك - وهيّأتني له - منذ البداية؛

قتلتُ شهرزاد بيد أبي الذي انتقل من مرحلة الخوف عليَّ إلى مرحلة الفخر بي، مع العلم أنّ الطريق بين المرحلتين كانت شاقة جداً؛

قتلتُ شهرزاد بيد مختلف الزعماء والممثلين الدينيين الذين جعلوني أدرك حجم الهوّة بين الالتزام الواعي والالتزام الأعمى لمبدأ ما، أي مبدأ؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل المحافظين المتيبّسين الذين التقيتهم في حياتي، الذين جعلوني أكتشف الفرق ما بين المبادئ الأخلاقية الإنسانية، والقيم المتحجرة التافهة؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل عارضات كالفن كلاين وفتيات جيمس بوند، وكل امرأة تُعامَل كسلعة رخيصة على صفحات المجلات وشاشات التلفزيون وفي الأفلام والحياة الواقعية؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل مراهقة تجوّع نفسها حتى الموت لأنها تعرّضت لغسل دماغي جعلها تصدّق أنّ الرجال يفضّلونها على هذا النحو؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل رجل سخر منه أصدقاؤه «الفحوليون» لأنه يعامل النساء باحترام وتهذيب؛

قتلتُ شهرزاد بيد الطبيب الذي صفعني لما خرجتُ من رحم أمي، وكل شخص آخر صفعني - أو حاول أن يصفعني - من بعده؛

قتلتُ شهرزاد بيد أستاذ الرياضيات في الصفّ الرابع الابتدائي الذي أراد أن يقنعني بأنّ الفتيان موهوبون في الحساب، والفتيات في الطهو؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل دمية تفسد عقل كل فتاة صغيرة في كل مدينة حول العالم؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل صرخة لم أجرؤ على الجهر بها، وكل «لا» لم أجرؤ على قولها - بعد؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل صديق خانني وكل صديق خنته؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل انتصار كنت شاهدةً عليه، وكل هزيمة تعلّمتُ منها؛

قتلتُ شهرزاد بيد كل شخص سبق أن كنته، كل شخص أنا عليه الآن، وكل شخص سأكونه يوماً ما؛

أخيراً وليس آخراً، قتلتُ شهرزاد بيد ليليت: بذرتي وجذوري وأرضي وحقيقتي.

* * *

نعم، قتلتُ شهرزاد. قتلتُ شهرزاد التي في داخلي. وأنا عازمة على قتل كل من وما يشبهها أو يتصرّف مثلها، من قريب أو من بعيد، في لاوعيي ومخيّلتي وعقلي. لذا، حريّ بشقيقاتها وبناتها وحفيداتها وكل سليلتها أن يغلقن باب التنازلات، أو يبقينَ بعيدات، جداً، عني.

فهناك امرأة عربية غاضبة ترود في الأنحاء. هي تنسج حكاياتها الخاصة، غير القابلة لأي تفاوض؛ وتتمتع بحريتها الخاصة، التي لم يمنحها إياها أحد؛ وتملك أفضل سلاح على الإطلاق.

وما من مجال لإيقافها الآن.

شكر وتقدير

أولاً، أودّ أن أتقدّم بالشكر من كل الأصدقاء الرائعين الذين اقتطعوا من وقتهم ليقرأوا، بتمعّن، مخطوطتي المتواضعة، وأعطوني ملاحظاتهم النافذة وتعليقاتهم المفيدة لتحسينها. وهم (بالترتيب الألفبائي): أوريانا كابتسيو، إيتل عدنان، بيتر كارلسون، يان هنريك سوان، رينيه هربوز، ستيفن ماكورميك، شونا جولي، عقل العويط، لوكا بوناكورسي، ماريلين هاكر وهلا حبيب.

كما أودّ أن أشكر كل النساء الرائعات الملهمات في بلدي (والرجال أيضاً)، فضلاً عن النساء الرائعات الملهمات في العالم بأجمعه (والرجال). ولا أنسى أيضاً من اقتبست عنه أقواله ومن لم أقتبس، لكنه بقي حاضراً جداً، يحفّزني بكلماته عند كل مرحلة من مراحل رحلتي هذه. أشكر أيضاً أولئك الذين أقبلوا إلى حياتي ثم رحلوا عنها، أولئك الذين ما زالوا حاضرين، والذين سيحضرون يوماً ما. لهم جميعاً أدين بمن أكون اليوم، خصوصاً، بمن سوف أكون في الغد.

أخيراً وليس آخراً، أشكر والديَّ على ما يتمتعان به من ميزات وعيوب، على لحظات شكّهما وإيمانهما بي، على ما حقّقاه من إنجازات وما ارتكباه من أخطاء، على الكلمات المناسبة وغير المناسبة التي قالاها لي، على ما أخذاه مني وما منحاني إياه، على «لخبطتي» وترتيبي، كل ذلك في الوقت نفسه. كما أشكر ولديَّ، منير وأنسي، لأنهما يعلّمانني كل يوم كيف أستحقهما أكثر، كأم، وكامرأة، وكإنسانة.

ج. ح.

إلى ابنتي تلك التي لم أنجبها ، وقد ؛ المنتظرة ، غير المتوقّعة المرغوبة ، المهيبة المحلومة ، المهدهدة بين الذراعين التي من أمل ، ومن لحم ودم ، الحقيقية ، ولا تصدَّق ؛ التي بألف اسم ولا اسم يسمّيها ؛ المولودة غير المولودة بعد ، المحبوبة في غابتيها ...

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

جمانة حداد غاضبة. تغضبها طريقة تصوير المرأة العربية في المجتمعات الغربية.
في هذا الكتاب، تتحدّى جمانة المفاهيم السائدة المتعلّقة بالهويّة وواقع المرأة في الشرق الأوسط.
تتحدّث عن نموّها الفكري الشخصي وعن التأثير التحرّري الذي خلّفه الأدب على حياتها.

هذا الكتاب هو محاولة استفزازية، مضطرمة وصريحة في الوقت عينه، لسبر أغوار معنى أن تكون المرأة امرأةً عربية في أيامنا هذه.

قيل في الكتاب

«دعوةٌ جريئة إلى كل النساء العربيات كي يدافعنَ عن أنفسهنّ وحقوقهنّ». نيويورك تايمز «هذا الكتاب احتفاءٌ بالفردية، والخطاب الحرّ، وحرية الاختيار، والكرامة». الغارديان «جمانة تفضّل المواجهة حتى الرمق الأخير». لوموند «هذا الكتاب مرآة تعكس أشعة النور على حقوق المرأة في كل الاتجاهات، لا بل باتجاه الغرب أيضاً». إلبايس- إسبانيا «إنها الجريمة الكاملة». كوريير ي ديلا سيرا – إيطاليا «تكسر جمانة حداد تابو المرأة العربية الصامتة والمغيّبة: كان على شهرزاد أن تموت لكي تروي قصّتها هي». ألفريده يلينيك. «جمانة حداد جريئة وحقيقية: هي تكشف النقاب عن خبث المجتمع العربي وتخدش جميع الذين يخافون الرغبة. هي شاعرة حقيقية، أي إنها غير مهذّبة».

الطاهر بن جلون

نبذة عن المؤلفة

شاعرة لبنانية حازت جوائز عدّة، مترجمة أدبية، ناشرة وصحافية. رئيسة تحرير الصفحة الثقافية في جريدة النهار اللبنانية. في عام 2008، أطلقت أوّل مجلة إيروتيكية ثقافية في العالم العربي، بعنوان «جسد». عام 2009، اختيرت جمانة أحد أفضل الكتّاب العرب ما دون سنّ التاسعة والثلاثين، ضمن احتفالية «بيروت 39».